

ابراهيم لنكون

كتبنا للشباب
چينيقيش فوستر

ترجمنا للمربية
امين سرسي قنديل

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية

"ABRAHAM LINCOLN"

An Initial Biography

By

Genevieve Foster

Published By Permission
of

Charles Scribner's Sons,
New York.

فهرس

صفحة

٥	 كتنكى
٩	 طاحون الأذرة فى كتنكى
١٤	 إنديانا
١٩	 زوج أبیه الطیبة القلب
٢٦	 النهر والقانون
٣٦	 نبو سالم
٤٦	 مارى طود
٥٢	 المحامى
٥٩	 الرئيس
٧٤	 التحرير
٨١	 فى جتنزبرج
٨٤	 نحو النهاية
٩٠	 اليوم الأخير

كنتكى

فى صباح يوم من شهر فبراير سنة ١٨٠٩ ، اشتد برده ، وانتشر ضبابه ، كان قى صغير يرتدى بنطلوناً من جلد الغزال ، وعلى رأسه قبة من جلد « الراقون (١) » ، يجرى بأسرع ما يستطيع أن يجرى فى طريق ضيقة من طرق الغابة فى غرب (ولاية) كنتكى . فربما كانت الدية تتبعه ، أو كانت جماعة من الهنود الحمر وراءه تقتفى أثره ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ؛ فالفصل شتاء ، والدية هاجمة ، ولم يعد أحد فى كنتكى يرى غير قليل من الهنود الحمر ؛ فقد تضام عددهم حتى صار أقل من عدد صغار الأطفال الذين كانوا فى تلك النواحي نادرين كل النادرة . ولكن هكذا بدت الأمور لنديس هانكس ، فجعل يجرى بمثل هذه السرعة .

كان ذلك فى الثانى عشر من شهر فبراير ، وكانت ابنة عمه نانسى هانكس لينكولن قد وضعت طفلاً ذكراً ، فجاء توم لينكولن إلى المدينة بحمل هذا النبأ ، وليستدعى خالته بيتسى سبارو التى كانت قد أعدت كساء أصفر اللون ليلبسه المولود الصغير .

(١) الراقون (أو الراكون) حيوان من أكلة اللحوم فى حجم القط الكبير يعيش فى أمريكا الشمالية وتسميه العامة (قون) أو (كون) اختصاراً . وهو يصيد فرائسه ليلاً ، وله فرو طيب أسمر أو رمادى ، ولذا كانوا يتخذون من جلده ملابس للتدفئة (ق)

وكان لتوم ونانسي ابنة اسمها « ساره » ، فى الثانية من عمرها :
ولسكن هذا الطفل الجديد صبي ا . فما أن سمع بذلك دنيس — وكان
فى التاسعة من عمره — حتى خطف قبعته ، وسارع جريا إلى كوخ
آل لينكولن : وظل يجرى ميلين حتى وصل آخر الأمر إلى مكان
فى الغابة أخلى من الأشجار . وها هو الآن فيه .

وأمامه فى ذلك المكان المنعزل الذى أخلى من الأشجار ، يقوم
كوخ صغير أدكن اللون مبنى من كتل الخشب ، له باب واحد ،
وشباك واحد ، ومدخنة كبيرة مطلية بالطين يتصاعد منها الدخان

وداخل الكوخ ، كانت نانسي راقدة على فراش من صغار الشجر
قبالة المدخنة ، وقد انتشر شعرها الكستنائى الطويل على الحشيشة
المصنوعة من قش الأذرة ، والطفل بجانبها . وكانت على وشك أن
تنام عندما سمعت دقا على الباب ، وصوت صبي عكر عليها أحلامها ؛
إنه دنيس واقف أمامها يلثم ، ويتلفح حوله فى الضوء الخافت وينظر
مرة باحدى عينييه ثم بالأخرى .

قال وهو يلثم : الطفل ؟ أين هو ؟ انى لأراه فى أى مكان هنا ؟
فتبسمت نانسي ، وأشارت إليه ، ثم رفعت فى رفق طرف ملحفه
مصنوعة فى المنزل .

ثم قالت : يا ابراهيم ، جامك زائر . و ابراهيم هو الاسم الذى سمي

به الطفل على اسم جده لينكولن . ثم شرحت لنديس الأمر بصوتها الناعم البطيء .

فلما ألقى الصبي نظرة على الطفل ، اختفت من وجهه علامة التحمس واللمفة التي كانت بادية عليه ، وقال . أهذا طفل ؟ هذا الشيء الصغير الأحمر المتجعد كله حتى كأنه تفاحة جافة ! وكان كل ما يستطيع أن يقوله عنه :

« أظن انه لن يكون شيئاً يذكر ،

ولم تجبه نانسي لينكولن بشيء ، بل أغمضت عينيها ، وعادت إلى آملها وأحلامها السعيدة التي أفعمت قلبها صباح ذلك اليوم من شهر فبراير .

وكبر إيب الصغير هذا بأسرع مما ينمو سائر الأطفال ؛ وسرعان ما استطاع أن يجلس ويلعب بدمية ساره المتخذة من كوز أذرة ، ويمد يديه إلى ذنب الكلب . وبعد قليل أخذ يمشى حول الكوخ بساقين طويلين نحيلين كالغزل ، مما جعل أباه يضحك منه ويظن أنه سرعان ما يكبر فيحمل بندقية ويذهب بها ليصيد « الرواقين » ،

فقد كان الصيد هواية توم لينكولن التي يحبها . فقبل انتقالهم إلى هذه المزرعة التي لم يتم تطهيرها بعد مما بها من أشجار الغابات ، كان توم ونانسي يقطنان في المدينة . ومع أن توم كان نجاراً ماهراً ، فانه كان يفضل الصيد في أى يوم على العمل بآلات النجار ، أو على العزق في

المزرعة . فلا غرو ان كانت الأذرة ، والقرع ، والبطاطس ، التي زرعها
لم تنم دائما كما يجب ؛ فقال إن الأرض ليست طيبة ، فكلها جذوع ،
وأحجار ، وصلصال أصفر ؛ فخير لنا أن نبيعها وننتقل إلى مكان آخر .
فلما بلغ إيب الثالثة من عمره انتقل آل لينكولن إلى ما ظنه
أبوه مزرعة أيسر عملا في د نوب كريك ، على بعد خمسة عشر ميلا
من حيث كانوا . وهذا أول مسكن يذكره إيب ؛ فقد ظلوا يسكنون
وادي د نوب كريك ، هذا حتى بلغ إيب السابعة .



وفى ذات يوم وجد ايب لنكولن كلباً جريحاً فى الطريق ،
فحملة معه وتحسس ساقه الجريحة بيده ، وأشفق عليه .
ومنذ ذلك اليوم أصبح ذلك الكلب الضال الذى عثر عليه ايب
رفيقاً أميناً له .

طاحون الأذرة فى كنتكى

فى صباح يوم من أيام الصيف ، كان إيب نائماً على زكيته
المحشوة بقشور الأذرة ، والملقاء على أرض السكوخ ؛ وكانت الشمس
تلقى شعاعاً رفيعاً مائلاً من بين كتل الخشب على جفونه المطبقة
إطباقاً تاماً ؛ فطرفت عيناه ، وتقلب على جنبه ثم نهض ؛ وعندئذ
وئب إليه جرو حقير جعل يتلوى ويتثنى يميناً وشمالاً ليغدق عليه
القبلة بعد القبلة .

فأخذ إيب الكلب فى حجره ، وجس ساقه الأمامية الملتوية التى
سبق أن كسرت شر كسرة عندما وجده إيب منذ عدة أسابيع
ملقى على الأرض فى الطريق مهجوراً .

فقال إيب : يبدو أنها قد شفيت الآن ، وفى ظنى أنك تستطيع
أن تسير اليوم معى ، ومع أوستن إلى الطاحون ؛ ثم تئامب إيب
ووقف ، ورفع ساعديه عاليين على رأسه ذى الشعر الأسود المتشعث ؛
فقد كان فى ضجخا ضخامة لا تتلام مع سن السابعة ؛ كما كان فارغ
الطول ؛ حتى أنه كان يتمنى أحياناً لو لم يكن بهذا الطول حتى
لا يعاكسه الصبية وينادونه « بأبى طويلة » .

ومهما يكن الأمر فلم يعد أحد يستطيع الآن أن يقول عنه بعد
ذلك إنه « الولد ذو القميص » . هكذا ظن ، وهو يرتدى بنطالونه

الجديد المصنوع من جلد الغزال . فقد صار عنده الآن هو أيضاً
بنطلون يلبسه ، كما يلبس الأولاد الكبار ، وليس مجرد قميص صغير
قديم يتدلى عند ركبته .

وكانت طاحون ، هُذُنْجَن ، التي اعتاد آل لينكولن أن يطحنوا
فيها أذرتهم ، تقع على بعد ثمانية أميال من المزرعة ، فأعد إيب خشب
الحريق في الليلة السابقة كي يبدأ عمله في الصباح الباكر ، ولم يبق عليه
إلا أن يعلف خنزيره الصغير ، ويطعم جديه ، ويجلب الماء من العين .
فلما عاد ومعه الدلاء ملأى حتى حافاتهما بالماء ، كانت « ساره » قد
استيقظت ، وأخذت أمه تُعد طعاماً من دقيق الأذرة ، وتقلو لهما
مقدداً في مقلاة ذات يد طويلة .

ولم يكن أبوهم معهم ، فقد خرج يتصيد ؛ ولكنه لم يقصد هذه
المرة صيد الحيوان وإنما البحث عن أرض جديدة ؛ فعاد توم لينكولن
إلى قلقه من جديد ، وتمنى لو أنه يجد مكاناً خيراً من « نوب كريك » ،
لأهله يعيشون فيه . ولكن أهله لم يكونوا راغبين في مكان أفضل من
هذا ، فهو بيتهم ومأواهم — هذه المحلة الصغيرة في ذلك الوادي بما فيها
من جماعات لتقشير الأذرة وحلقات من اللسوة تتنافسن في إعداد
الملاحف .

وكان إيب يحب بوجه خاص أن يذهب إلى الطاحون . ومن
حسن حظه أنه قد كبر الآن وأصبح قادراً على أن يذهب إليه

وحده . هكذا رأى . فحمل زكيته الملقى بالأذرة على عاتقه معلقة على عصا . وكانت أمه واقفة عند الباب لما خرج بها إلى الطريق والكلب الصغير يقفز وراءه . . فايب لا يبدو في نظرها ضحكا كما يقولون ، وبعد ذلك عجبت كيف يستطيع أن يحمل هذا المقدار من الأذرة ، تلك المسافة الطويلة !

وكان أوستين يلتظره على بعد مسافة قصيرة في الطريق ، وكان هو الآخر يحمل زكيته الملقى بالأذرة ، فضلا عن بندقيته ليحتميا بها ؛ فأمامهما جزء موحش من الطريق وسط الغابات الكثيفة ، وكان يخشى أن تصادفه الذئاب ، أو حتى القطط البرية . وسأل : وأنت ؛ ألسنت تخشاها يا إيب ؟

فهز إيب رأسه وقال لا : لست أخشاها إلى حد كبير . واستأنف سيره في صمت . فقد كان يفكر تفكيراً جدياً ، وشفتهاء تتحركان ثم قال فجأة : د... د... ك — ديك ، فلعل هذا هجاء هذه اللفظة . أما أوستين فلم يدر ، ولم يهتم بالأمر . وفهم إيب . فهكذا دأب بعض الناس ، ومنهم أبوه . فهو يقول إنه من الأفيد للبرء أن يتعلم كيف يصيد الديكة بدلا من أن يتعلم هجاءها .

ولكن أمه لم تكن من هذا الرأي ، فهي تستطيع أن تقرأ وتكتب قليلا . وفي الربيع عند ما افتتح أحد المعلمين مدرسة له في المحلة أفنعت أباه بأن يرسله هو وساره معا إلى المدرسة وكانت تقول له :

تعلم يا إيب كل ما تستطيع أن تتعلمه ، واعمل على أن تكون رجلاً ذا قيمة وشأن .

والكن إيب لم يتمكن من الذهاب إلى المدرسة كثيراً ، فقد مرضت أمه واضطر أن يبقى بجوارها ؛ على أنه كان يود أن يتعلم حقاً ويكون ذا قيمة وشأن كما قالت أمه . فليكن طحاناً كالمستر هـ دجن ، الذى يقيم فى بلدة سُميت على اسمه ! وكانت زوجة المستر هـ دجن ، هذا ، تعلم إيب أن يتهجأ الحروف ، ويعد الأرقام ؛ كما كانت تقرأ له من كتاب عجيب اسمه « خرافات إيسوب » ، وقد فرغ إيب تَوَّاً من أن يقص على أوستين إحدى هذه الخرافات عندما وصلا إلى الطاحون وكان مدخل الطاحون مزدحماً بالناس كالعادة فقد وقف الرجال والأولاد ينتظرون دورهم ليطحنوا ما معهم من الأذرة دقيقاً . وكان زوج من الثيران يدور ببطء فيحرك أحجار الطاحون الكبيرة .. ومر إيب وأوستين بجماعة من الصبيان الكبار الفاشلين الذين لاخير فيهم ، وإذا بهما يسمعان صرخة حادة ؛ فاستدار إيب وسأل فى عنف من الذى ضربك ؟ أنت الذى ضربته ؟ فابتسم ولد سمين ذو وجه أتمش ، وهز رأسه بالإيجاب . فقال أوستين : موجهها حديثه إلى إيب اضربه بجمع يدك اقاتله . ولكن إيب هز رأسه وقال إنه لا يريد أن يقاتل أحداً إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، وعندئذ ندّبه الصبية الآخرون وقالوا إنه لا يجسر على القتال .

وفي هذه اللحظة ظهر المستر د هاجن ، على المسرح وحجم النزاع بأن قال يجب أن يرفع كل صبي منكم الآخر من مقعد ، بنظرونه ، ويهزه هزاً عنيفاً . فحاول إيب ذلك أولاً ، ونجح ، ثم انحنى . وحاول الصبي الأنمش الوجه جهده وأمسك بإيب ولكنه لم يستطع أن يرفعه حتى عن الأرض .

وعاد أوستن إلى البيت هذا اليوم ، وهو أشد ما يكون اعتزازاً بأنه صديق إيب لينكولن ، أمهر وأقوى صبي عرفه ؛ فإن كان به شيء من الغرابة فذلك ميله إلى شيء من الحزق والتزمت . والآب ، وهما يسيران إلى المنزل بدا إيب كأنه لا صديق له في العالم ، وحاول أوستن أن يتحدث إليه عن مشروعهما الحبيب إلى نفسيهما ، وهو اشتراكهما معاً في إدارة الطاحون عندما يكبران ؛ ولكن إيب لم يفعل شيئاً سوى أن هز رأسه ، وظل أشد حزناً مما كان ؛ إلا أنه قال : من يدري فلعله لن يستطيع الذهاب إلى الطاحون بعد ذلك .

فقد يحضر والده الآن في أي يوم من الأيام ؛ وعندئذ ينتقل بهم إلى مكان بعيد موحش منعزل يسمى إينديانا

ولم يستطع إيب أن يتكلم عن هذا المكان ، وكل ما استطاعه كان أن يبتلع ريقه ، ويحبس دمه ، إلى أن يبلغ المنزل ؛ وعندئذ رقد في الركن المخصص له في الكوخ ، وكلبه الصغير إلى جانبه ، وجعل يلشج حتى غلبه النوم فنام . فهو لم يكن معدوداً في البيت ولداً كبيراً جداً ، لأنه لم يتجاوز بعد السابعة من عمره .

إينديانا

انقضت أيام الصيف ، ومضى الخريف بما فيه من أوراق الأشجار المتساقطة ؛ ثم حل مساء أدكن في شهر نوفمبر — وهو آخر مساء لهم قبل أن يرحلوا إلى إينديانا ؛ وكانت الظلمة قد أخذت تغمر الكوخ الصغير لما جاء إيب في بطنه يحرق نفسه بعد أن ودع أوستين وترك له بقرته الحبيبة إليه ؛ فرأى من الباب المفتوح ضوء النار منعكسا على وجه أمه ، وسمع صوتها الرقيق وهي تتلو الفاظا من الإنجيل : « الرب هو راعي فلن أكون بحاجة إلى شيء ، فوقف بنصت إلى ما تقول ... نعم حتى وإن كنت أسير في وادي الموت قاني لن أخشى شراً

ثم دخل في سكون وجلس عند الدكة الواطئة خلفها حتى فرغت من تلاوة الألفاظ الأخيرة

وقالت إن هذه الألفاظ : تهديء نفسي وتدخل على الاطمئنان . وهز إيب رأسه ، وشعر بأنه كذلك أحسن حالا . فيبدو أن تلك الكلمات الغريبة الجميلة تصل إلى قرارة نفسه فتبلغ ذلك الجزء منه الذي يؤلمه

وفي اليوم التالي عند شروق الشمس وقف حصانان هزيلان مسنان عند باب الكوخ ؛ وكانت أمه وساره مشغولتين بتطبيق

الملاحف ، وحزم الأطباق المصنوعة من المعدن . وكان أبوه يصفر
ويغنى ، وهو يرفع الغلاية الحديدية والمقلاة . وسلم إيب بضعة أشياء
لينقلها خارج البيت .

ثم قال إن هذا الأثاث تافه لا قيمة له ، وليس جديراً بعزيرتى
نانسى الحلوة ، الجميلة ، ولا بكوخها الرائع الجديد فى إينديانا .
فتبسمت نانسى ، وسألت عما إذا كان ثمة واعظ متجول يصل
إلى تلك النواحي ، كما هى الحال هنا فى كنتكى ، حتى يستطيعوا أن
يسمعوه يتلو عليهم الإنجيل . وكان توم واثقاً من هذا الأمر ، فكل
شئ سىكون على ما يرومون ، إذا ما وصلوا إلى بيدجن كريك ،
فى إينديانا ،

وتمنى دنيس هانكس لو ذهب معهم ، عند ما توقفوا عند بلدة
« اليزابث تاون » ليودعوا العم توم والحالة بيتسى سبارو ؛ وقالت لهم
الحالة بيسى إنهم قد ينتقلون هم أيضاً من هنا السنة القادمة ، فنفوسهم
تحدثهم بأنهم سيعبرون نهر الأوهايو ، ذلك الذى يقول الناس عنه
إنه أكبر وأوسع نهر يمكن أن يتصوره إنسان .

وفى اليوم التالى ، كان ذلك رأى إيب أيضاً ، عند ما بلغوا النهر
وشرعوا يعبرون مياهه العريضة اللامعة ، « بالمعدية » .

ونهر « الأوهايو » ، هذا يفصل كنتكى عن إينديانا ؛ وقال والده
إنه يعمل أكثر من ذلك ، فهو يفصل جميع الولايات التى يستطيع

الآغنياء فيها أن يقتلوا العبيد ويملكوهم ، عن الولايات التي يحرم عليها القانون ذلك . وهذا هو السبب في أنه من الخير للفقراء أمثالهم أن يلتقلوا .

وقد بقيت ستة عشر ميلاً من عند النهر ، عليهم أن يقطعوها قبل أن يصلوا إلى الغابات الكثيفة ؛ وهي أعمق وأكثف من أي غابات عهدوها في كنتكي . فليس في بعضها أي أثر لطريق وكان ، أبو إيب قد استعار عربة ليحمل عليها المؤن اللازمة لهم في الشتاء ؛ وكثيراً ما كان يضطره الأمر إلى قطع الأشجار حتى يستطيع أن يجد له طريقاً ينفذ منه . ولما وصلوا ، لم يجدوا أمامهم شيئاً يرونه .

فلم يكن ثم شيء سوى كومة من صغار الشجر الملتف ، وبضع أشجار عليها بضعة خطوط علامة على الموضع .

وقال والده إن أول شيء يجب أن يعملوه هو أن يقيموا حظيرة من جذوع الشجر ليعيشوا فيها إلى أن يتم لهم بناء السكوخ ؛ فعاون إيب أهله على عمل هذه الحظيرة ، وأخذوا يقطعون أشجاراً صغيرة ، ويقيمون منها حظيره مثلثة الأضلاع مفتوحة من الأمام .

وفي هذه الحظيرة المفتوحة قضوا فصل الشتاء الطويل . فكان الهواء يهب عليهم فيدفع المطر البارد والثلج المتساقط داخل الحظيرة ؛ وأحياناً كان يهب عليهم الدخان المتصاعد من كتل الأخشاب التي تحرق في الخارج . وكانوا يطهون طعامهم من اللحم الصيد ، ومن

الديكة الرومية التي يصطادونها ويشوونها على النار التي كانوا يستبقونها
مشتعلة طول الليل لإرهاب الذئاب العاوية في الظلام .

و ذات يوم صحت سماءه ، وصفا جوه ، قام والد إيب يخطط
الأرض اللازمة لإقامة الكوخ الجديد ؛ وأنه يجب أن يكون كبيراً ،
له عالية تخصص للنوم ، وله أوتاد مثبتة في جدرانها ليستعينوا بها على
الصعود إلى العلية . وقد استغرق قطع الشجر والخشب عدة أيام
قصار ، قارسة البرد . ثم أدبر الشتاء ، وحل الربيع ، وجاء بعده
الصيف ، فأقيمت الجدران ، وتم بناء المدخنة ، ووضع السقف ؛ ثم
انتقلوا إلى الكوخ .

وجاء العم توم والحالة بيتسى سبارو ليعيشا معهم في الحظيرة
القديمة ، إلا أنهما لم يستمرا فيها طويلاً فقد توفيا كلاهما في الصيف
بمرض عضال لا شفاء منه .

وقامت نانسى بتمريضهما وظلت تُعنى بهما حتى أصيبت هي
الأخرى بالحمى .

وعلى بعد ميل من الكوخ كانت عين ماء ، وقطعة أرض لينة
مغطاة بالرمال تأتي إليها الغزلان مع أخشافها الصغار المنقطة لتشرب .
وكانت تحيط بها من كل جانب الغابات العميقة الهادئة الدافئة ذات
الأرج الفواح يغمرها الضوء الأخضر اللامع ؛ ففي تلك البقعة الهادئة
اتخذوا مقبرة دفنوا فيها نانسى لينكولن فيما بعد .

فهي لم تمتد بها الأجل حتى ترى الكوخ الجديد الرائع ، بعد أن
تم بناؤه ، ولم تر الأثاث الجديد وهو يضع ؛ فقد عزم نوم على صنعه ،
وعلى تطهير أراض جديدة ، من الغابات ، وعلى أن يبدأ المزرعة
بداية أفضل . ولكن أياماً كثيرة صالحة للصيد توالى ، فظل الكوخ
من غير شباك ، ومن غير باب ؛ اللهم سوى ثقب تركوه وسط
الأخشاب . ولم يجعلوا للكوخ أرضية يضعونها فوق التربة السوداء .
فلما مرضت نانسي وكادت تحترق من وعكة الحمى الغريبة ، رقدت ،
كما كانت ترقد دائماً ، على سرير من أعواد الشجر ، وعلى حشية
محشوة بقشر الأذرة .

وجرى إيب يحضر لها أقداحاً ملاء بالماء البارد ، ولكن صحتها
ظلت تسوء يوماً بعد يوم . وأخيراً أمسكت بيد إيب وأوصته أن
يكون كريماً مع ساره ومع أبيه ، وأن يؤمن بأن الله يعلم ما فيه الخير
للناس ، ثم . . . ثم لم تلبس بعد بكلمة ما .

وكان إيب قد بلغ الآن التاسعة من عمره ، فعاون أباه والدموع
تتحدروا على وجهه ، على إعداد تابوت لأمه . وبينما هو يسير خلفها
في طريق الغابة جعل يفكر في تلك الكلمات التي اعتادت أن تقولها
عن « السير في وادي الموت من دون أن تخشى شيئاً » . فليت واعظاً
يقرأ شيئاً من الإنجيل على قبرها ، إذ أن إيب يعرف أن هذا
ما كانت تتمناه . ولكن الوعاظ المتجولين نادرون كل الندر في
غابات الهنود العميقة المظلمة في إينديانا .

زوج أبيه الطيبة القلب

مضت سنة كاملة قضوها في الوحشة والبؤس ، حتى لم يعد والد إيب أن يطبق أكثر مما احتمل ؛ فعاد إلى كنتكي تاركا إيب وساره وحدهما مع دنيس هاتكس ، الذي جاء ليعيش في كوخهم بعد وفاة الحالة بيتسى

و ذات يوم مظلم كثيب من أيام ديسمبر ، جلس إيب قبالة النار ينقش جميع الحروف التي أستطاع أن يتذكرها ، على الرماد ، ويتمنى لو كان يعرف القراءة . فكان كل يوم يمضى عليه كأنه أسبوع ، لأنه كان ينتظر عودة أبيه ؛ وكان يعرف السبب الذي من أجله رحل . على أن هذه المعرفة لم تكن لتجعل الانتظار أهون عليه ولا أيسر . وكان دنيس قد عاد توأ ، ومعه بندقيته حاملا سنجاباً للغذاء ، ووعدت ساره بطهيته ، وأن تجعل منه طعاما شهيا ؛ لكن إيب قال لها إنه لا يستطيع أن يأكل ، بل انه لا يستطيع حتى أن يبلع شيئا !

وقال في نفسه ، ما العمل ياترى اذا لم يحضر أحد ؟ أو إذا حضر شخص ما ، ولم يحبه هو ولا ساره ؟ وماذا يحدث إذا . . . وجأة سمع وقع حوافر الخيل ، فبادر وخرج من الكوخ ؛ ولم يكذب يقف على جلية الأمر ، حتى حضرت هي — هي ، زوجة أبيه ساره بوش لينكولن . وكان هو أول من رآها وهي جالسة بجانب والده على مقعد في عربة

كبيرة مملوءة بالآثاث حتى كان لابد لها من أربعة جياد تجرها .
وجلس على كومة الآثاث صبيان صغيران وولد ، قفزوا جميعا
من العربة عندما وقفت ، ولبشوا يحملقون في وجهى ساره وإيب ، وهما
لابسان ثيابهما القذرة المهلملة ثم جاءت المرأة الطويلة ووقفت بجانبهم !
وقالت هؤلاء أولادى — جون ، وساره ، وماتيلده جونستون
وكان صوتها حنوناً فيه رنة الصداقة . ثم قالت : وأظن أنك ساره
لينكولن ثم عادت تقول فى بطة : وأنت لابد أن تكون إبراهيم .
فرفع إليها إيب نظره : وإذا عيناها تتهان عن الصداقة مثل صوتها .
ولم يبد عليها أنها لاحظت أنه كان طويلاً أكثر مما ينبغي ، ولم تحفل
بأنه غير وسيم ، بل ابتسمت : وكذلك ابتسم إيب : ومن ثم حتى آخر
لحظة من حياته ظلت هذه الأم الثانية « خير صديقة له » .

وقالت فى قوة وهى تخطو إلى الكوخ : والآن ، سيكون أول
شئ أعمله هو أن أعد ما نأكله . أما أنتم أيها الصغار فاذهبوا فى أثناء
ذلك إلى حوض الخيل واغسلوا أجسامكم كلها بهذا الصابون اللين .
فقال إيب فى نفسه : نغسل الجسم كله ؟ وفى الشتاء ؟ انها لفكرة
غريبة كل الغرابة حقاً . ومع ذلك فقد غسل جسمه ، وشعر بعد ذلك
بشعور طيب ؛ كما شعر بأنه من الخير له أن يحصل على مشط يمشط به
شعره الأسود المتلبد ، وأن يلبس قميصاً نظيفاً من قمصان أبناء جونستون ،
ثم يجلس لتناول طعام جيد ساخن مع ثمانية أشخاص حول المائدة ، يطعمون

وبعد تناول العشاء عمدت أمه الجديدة إلى الكوخ القنرفككسته ،
ثم قالت لوالد إيب : كي يكون هناك شيء يشبه اللياقة ، يلبغني أن يكون
للكوخ أرضية من الخشب ، وباب ، ونوافذ . ثم عليه بعد ذلك أن
يأخذ شيئاً من الجير إلى « جنتريفيل » ، ويطل به الحوائط . ويلبغني في
هذه الليلة عينها أن يعاون كل واحد منكم على حمل قطع الأثاث ، وعلى
فرش المراتب المحشوة بالزغب ١١ وشعر إيب بشيء يتحرك في
الصندوق عند ما أنزلوه ١

وفي الصباح التالي فتحت زوجة أبيه الصندوق فكان فيه كتابان
أحدهما الانجيل والآخر — إنه لا يكاد يصدق عليه — كتاب
الخرافات الحبيب إليه .

كان « خرافات ايسوب » ،

وسالته زوجة أبيه : أتعرف القراءة ؟ فجز رأسه . فأجابت هي
بسرعة : ولا أنا . ولكنك لاشك تود أن تتعلم ؟ (وكانت تعرف
الجواب قبل أن ينطق به) . وعلى هذا فسأعمل على أن تتاح لك
الفرصة عندما يزداد عدد النازلين في هذه الأصقاع ويصبح في وسعهم
أن يشيدوا مدرسة ١

ولما حل الشتاء كان إيب قد بلغ الثالثة عشرة من عمره . وافتتحت
المدرسة فعلا وذهب إليها كل الأطفال بضعة شهور ، أما الآخرون
فلم يحاولوا أن يتعلموا . . . ولكن إيب كان مختلفاً عنهم كل الاختلاف

فجعل يراجع الألفاظ التي يحتويها كتاب الهجاء المرة بعد المرة، وجعل يتمرن على الكتابة في كل مكان، وبخاصة على ظهر جاروف النار الخشبي الكبير.

وأخذ دنيس يهتم بالأمر، فصنع قلباً من ريشة طير يعرف بالباشق الأمريكى، وعمل قليلاً من المداد، وأحضر قليلاً من الورق من الدكان الذى فى جنتريفيل. ليجعل منه كراسة، كتب إيب فيها إبراهيم لينيكولان
يده وقلبه.

انه سيكون صالحاً ولكن

الله وحده يعلم متى

لقد بلغ الآن الرابعة عشرة. وأخيراً أصبح يعرف القراءة والكتابة، ولكن والده كان يكلفه القيام بأعمال كثيرة — أعمال شاقة — من أعمال العزق. ومع ذلك فإن إيب كان كلما استطاع أن يترك الفأس والمجرفة يعود إلى القراءة والكتابة عودة الجائع إلى الطعام ولم يستطع يوم أن يفهم لذلك معنى. فقال: لو أن إيب ضعيف أو مريض لكان الأمر مختلفاً جداً، ولما استطاع أن يذهب إلى الصيد: ولكن شاباً ضخماً مثل إيب يتجه إلى التعلم من الكتب بهذا الشكل، يبدو لي غريباً كل الغرابة.

ولكن زوجة الأب الطيبة فهمت هذا الصبي الذى يختلف اختلافاً

كبيراً عن غيره من الصبيان . فأحياناً ، وهي مشغولة بجدل الملابس أو ترقيعها ، كان يطلب منها أن تصغى إليه وهو يقرأ لها بصوت عال حكاية مضحكة ؛ فيظللان يضحكان منها معامدة طويلة .

فأول كتاب ملكه إيب في حياته كان كتاباً حصل عليه من أول رجل اشتغل عنده ، وهو السيد جوسيا كروفورد أحد المزارعين القريبين منه .

وكان السيد كروفورد رجلاً نحيل الجسم متزمته له طريقة في الحرص الشديد على المال ، حتى صار عنده منه أكثر مما عند أى رجل آخر من الجيران ، ففى مقدرته أن يستأجرهم جميعاً ليعملوا عنده وقد عاونه توم لينسكولن على أن يبني بيتاً جديداً فى المزرعة ، ولذا أرسل ابنه إيب الصغير ليشغل أجيراً عنده ، ولم يكن وقتئذ قد تجاوز الخامسة عشرة ربيعاً مع أن طوله قارب الستة أقدام ، وكان قوياً بقدر ما هو طويل .

فذاث يوم كان السيد كروفورد ورجلان آخران أو ثلاثة فى حيرة من أمرهم بشأن الطريقة التى يمكن أن يرفعوا بها عشة للدجاج مصنوعة من كتل الخشب أرادوا نقلها من مكانها إلى مكان آخر . فسأل الرجل بصوته الرفيع القاسى : أين إيب ؟ هل عاد إلى القراءة ؟

فأجابه واحد من الرجال : ربما ! أو لعله فى الطريق يتحدث إلى

أحد الغرباء ، فأنت تعلم أنه لا يدع أحداً من المسافرين يمر من غير أن يتعلم منه كل شيء يعرفه .

وعندئذ جاء الولد الضخم يتلصقاً سائراً على مهل .

وقال بصوته المتشاكل : تريدون نقل العشة ؟ فإلى أين ؟

فأشار الرجل الى الموضع الذى يريدون نقلها اليه . فما عثم إيب أن انحنى ورفعها على ظهره واحتملها ثم أنزلها . فعل كل ذلك وحده بما حير الرجال وأخرسهم .

ثم قال مخدومه : أن إيب قوى ما فى ذلك شك . ولكنه كسلان فهو يستطيع أن يقشر الأذرة ، ويقطع الأشجار ، ويفلق الخشب بأسرع مما يستطيعه رجلان إذا شاء ، ومع ذلك فهو يفضل أن يقرأ على أن يشتغل .

أما جوزيا نفسه فلم يكن يحفل كثيراً بالكتب ، وإن كان يملك بعضاً منها ، فسمح لإيب أن يأخذ كتاباً يقرؤه فى بيته وطلب منه أن يحرص عليه . وكان الكتاب سيرة جورج واشنطن .

وما كاد إيب يطيق الانتظار حتى يبدأ قراءته . ولما بدأ لم يستطع أن يتوقف ، فظل يقرأ المساء كله وهو منبسط على الأرض أمام موقد النار إلى أن جاء أبوه وغمر النار بالرماد فانطفأت ، واضطر إلى الذهاب إلى مخدعه . وكان ينام فى العلية . ولكى يكون الكتاب فى متناول يده عندما يطلع النهار اعتاد أن يأخذه معه ويضعه فى حرص

وحذر بين كتل الخشب وفي الصباح التالى لما مد يده لياخذه أسقط
في روعه إذ وجد الكتاب قد تشبع بالماء ، لأن السماء قد أمطرت
بالليل . فاعساه أن يفعل يا ترى ؟ أو ما عساه أن يقول ؟

قال جوزيا كروفورد فى لباقة وفطنة : حسناً بما أن ذلك هو أنت
يا إيب ، فما عليك إلا أن تقضى ثلاثة أيام فى تقشير الأذرة ، ولك
بعد ذلك أن تحتفظ بالكتاب لنفسك ، ثلاثة أيام فحسب ! إن إيب لم
يكذب صدق الأمر . وبعد انقضاء هذه الأيام الثلاثة أصبح الكتاب
ملكاً له ؛ وهو سيرة جورج واشنطن . فقرأه المرة بعد المرة ،
وكانت مطامحه تتحرك فى نفسه بعد كل مرة يقرأه .

قال ذات صباح لزوجته السيد كروفورد : إني لن أظل دائماً أعمل
فى عزق الأرض وتقشير الأذرة وتفليق الأخشاب لكسب رزق .
ولما سأله عما يريد أن يعمل ، أو يكون ، أجابها بأنه يريد أن يكون
رئيساً للولايات المتحدة . قال ذلك وعلى فمه ابتسامة صغيرة ، كأنما
كان يمزح ؛ ولكن صوته كان فيه رنة الجد . ثم قال لها : ومهما يكن
الأمر فاني سأظل أدرس وأستعد ، فلعل الفرصة تسنح لى فى يوم
من الأيام .

النهر والقانون

ظل إيب إلى أن تجاوز السابعة عشر من عمرة ، يعمل فلاحاً أجيراً ، يشتغل من الفجر حتى المساء . وعاش فترة من الزمن على مقربة من نهر الأوهايو عند مزارع كان يدفع له ستة دولارات في الشهر ؛ وكان أقصى ما يربحه لا يتجاوز ثلاثين سنتياً في اليوم نظير قيامه بذبح الخنازير . وظل على هذه الحال إلى أن جاء ذلك اليوم الذي لا يلسى ، والذي عمل فيه على نهر الأوهايو

فقد صنع سفينة مفرطة القاع ، ووقف بها في وسط النهر ينظر إلى سفينة تجارية عالية بيضاء ، ذات صفارة ، وعجلة دوارة تحركها ، ومدخنة يتصاعد منها الدخان . وبينما هو على ظهر سفيلته المفرطة إذ ألقى إليه بعضهم نصفى دولارين من الفضة ، فالتقطهما . وهما في يده ، يتألقان كأنهما قطعتان من النهر ذاته .

دولارا

لقد ربح دولاراً كاملاً ؛ كسبه بعمل قليل هين ؛ ذلك أنه كان عند الشاطئ . يعالج سفيلته فجاءه رجلان غريان يريدان اللحاق بمركب تجارى يسير فى النهر متجهاً نحو المصب ؛ فالمرأ كب التجارية لا تستطيع أن ترسو على مقربة من الشاطئ . وكان ما عمله إيب أنه عداهما ، بسفيلته ، وحمل أمتعتهما إلى المركب التجارى .

ومن أجل هذا العمل الهين ، ألقيا إليه بدولار ١
فما الذى يمنعه أن يعمل فى النهر منذ الآن ؟ فإذا ما تيسر له
الحصول على شحنة من بضاعة ما ليبيعها ، فلماذا لا يأخذها وينحدر بها
فى نهر المسيسيبي إلى مدينة نيو أورلينز ؟ فالسفن المفرطحة تمر كل
يوم مشحونة بالخبازير والديكة الرومية ، ودقيق الأذرة ، والبطاطس ،
وسائر الأنواع التى يرسلها الفلاحون بطريق النهر لتباع هناك . فلماذا
لا يفعل هو كذلك مثلهم ؟

فقل له أبوه إن هذا مستحيل لأنه لا يزال صغيراً بعد ، ولأنهم
لا يستطيعون أن يحصلوا من غلات مزارعتهم المسكينة على شيء يفيض
عن حاجتهم لبيعهم .

وعلى هذا وجد إيب نفسه مضطراً أن ينتظر : ولما كانه ظل مع
ذلك يسأل الشيوخ من الرجال الذين يعملون فى النهر ليقف منهم على
طريقة العمل أو حدث ووافته الفرصة .

وكان قد حصل فى أثناء ذلك على عمل لا يشغل إلا جزءاً من
وقته فى مخزن جونس ببلدة جنتريفيل ، وإلى جانب ذلك ظل يعمل
فى سفينة المعدة ينقل عليها الناس من ضفة إنديانا .

وحدث ذات يوم أن رجلين من ولاية كنتكى كانا يعملان فى
معدية ، لهما من ضفة النهر التى عند ولايتهم ، فطلبا القبض عليه ؛
وجيء به ليجام أمام قاض من قضاة كنتكى .

فقال للقاضي ، إن هذا الرجل من أهالي إينديانا وليس له الحق في أن ينقل الركاب عبر النهر لأن ذلك مخالف للقانون ،

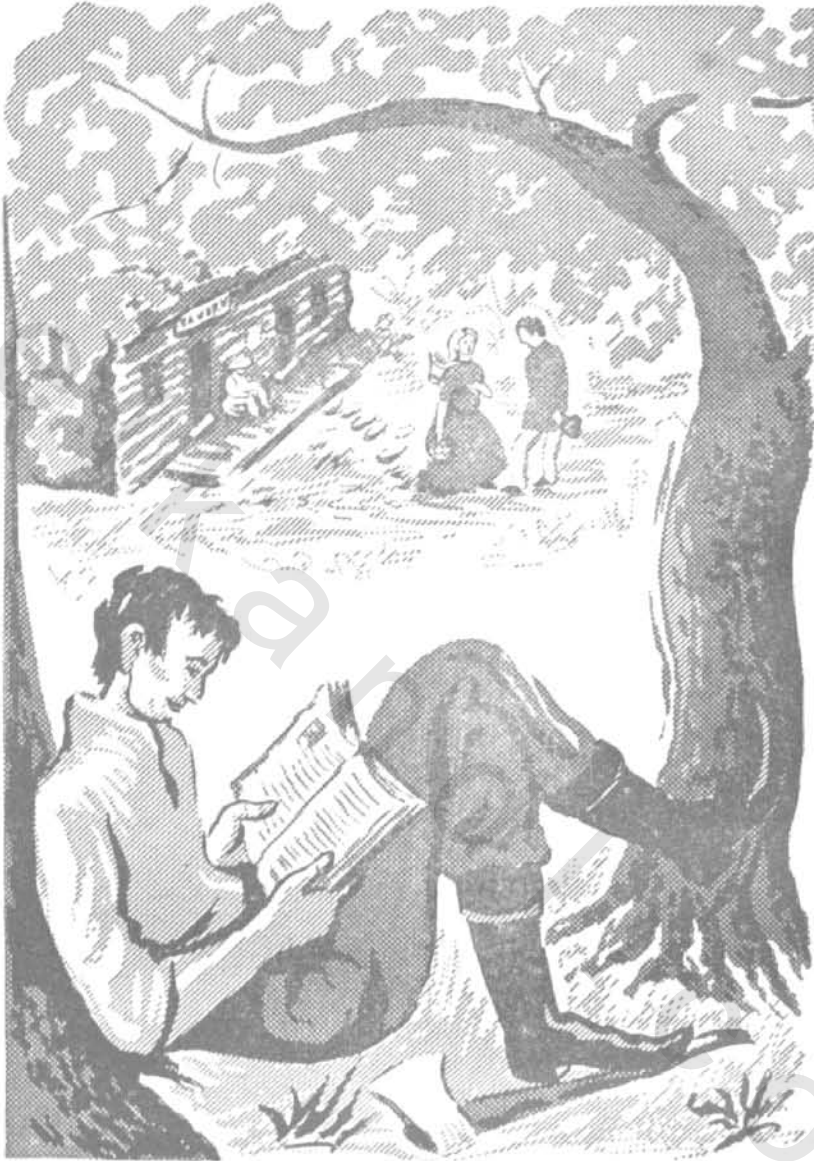
فسأل القاضي إيب أن كان قد تجاوز بالركاب منتصف النهر . فأجاب بالنفي . وعندئذ قال القاضي بأنه لم ينتهك حرمة القانون .

فقال إيب في نفسه القانون ! هذا شيء آخر يجب عليه أن يعرف شيئاً عنه . فظل يذهب بعد ذلك إلى المحكمة عند قاضي كنتكي كلما استطاع إلى الذهاب سبيلاً .

واقترض من أحد قضاة إينديانا كتاباً في قوانين هذه الولاية كي يقرأه . فرأى أن بعض قوانينها يخالف كل المخالفة قوانين كنتكي كالقانون الخاص بتملك العبيد مثلاً .

كذلك رأى أن هناك قوانين للولايات المتحدة تطبق عليها كلها جملة ، ووجد إيب في كتابه أول قوانين سكت للولايات المتحدة وتسمى الدستور . وعلى صفحة أخرى وجد إعلان الاستقلال ، حيث ذكر السبب الذي من أجله أرادت الولايات أن تتحد ، أولاً وتكون أمة جديدة .

ورأى إيب أن كل ذلك صعب الفهم ، عسير عليه أن يدركه ، ولكن من المفيد أن يظل يفكر فيه ويحاول حل مشكلاته . فعبارة « خلق الناس متساوين ، مثلاً . ما معنى ألفاظها ؟



وكان لنكولن الصغير محدثاً لبقاً . ولكنه كان يفتقر إلى الثقافة ،
فانكب على القراءة ودرس قواعد اللغة . وكان يقرض بعض
الكتب من أصدقائه .
وظل يقرأ ويدرس حتى أصبح على دراية تامة بقواعد اللغة .

فجعل يقلب في فكره كل شيء يقرؤه ، ويقلبه المرة بعد الأخرى إلى أن يستطيع التعبير عنه بالفاظ من عنده .

وسرعان ما لاحظ ، وهو في مخزن جونز ، أنه كلما قال للناس شيئاً عما قرأه في كتاب القوانين ، وحاول أن يوضحه لهم بذكر قصة مضحكة أو بقصتين احتشدوا حوله يصغون إلى ما يقول :

ففي السنة التي انتخب فيها أندرو جاكسون ، رئيساً [للولايات المتحدة] ظن الناس أن كل مزارع في جنتر فيل وما حولها أصبح يهتم بدراسة القانون . أليس عجيباً أن أندرو جاكسون ، ذلك الرجل البسيط الفقير مثلهم يستطيع أن يصل إلى أرقى منصب في الدولة ؟ ألا يؤيد ذلك ما نص عليه القانون من أن أمام كل إنسان في هذه البلاد فرصة حرة تكافئ ما لغيره من الفرص ؟

ففي سنة ١٨٢٨ ، وهي السنة التي انتخب فيها أندرو جاكسون ، كان إيب في التاسعة عشرة من عمره ، وقام بأول رحلة له في نهر المسيسيبي صوب مدينة نيواورلينز . وذلك أن السيد جنتيرى من مدينة جنتر فيل ، وهو مزارع غنى ، استخدمه عنده ليذهب مع ابنه ألن . فقام الولدان ببناء مركب كبير مفرطح القاع وشحناه بضائع بما تلذجه المزرعة لبيعها . ففي أوائل الربيع اندفعا في جراحة مع التيار بمركبهم وانطلقا . وكان إيب عند المجدف الأمامي .

فكانت رحلة قطعوا فيها ألف ميل من ضفاف إنديانا المكسوة

بالغابات إلى مستنقعات المسيسيبي الأدنى وخلجانها الرطبة المشبعة ببخار الماء . وكانت مغامرة كبيرة حقاً . فكانا يبحران نهراً ورسوان عند الشاطئ . إذا ما جن الليل ، ويحذران كل الحذر من الارتطام بجذوع الأشجار المغمورة في النهر أو بالرمال العالية في قاعه .

و ذات ليلة حالكة الظلام عند مزارع قصب السكر ، وقد رنق النوم على عيونهما سمعا وقع أقدام على ظهر السفينة ، فهما من نومهما ووجدتا عصابة من العبيد الزوج طلعوا على ظهر المركب قاصدين السرقه .

فصاح بايب شريكه أن آتى ببندقية

وكان واثقاً من أن العبيد يفضلون أن يكافحوا ويُقتلوا على أن يقبض عليهم ، فاختطف إيب هراوة وطردهم من السفينة ولكنه عاد وفي جبهته جرح تسميل منه الدماء على عيديه . فلا مجال للنوم هذه الليلة إذن فخلا رباط السفينة وأبحرا بها في النهر صوب المصب ، وبعد يوم أو أكثر أرسيا بها عند رصيف تكديست عليه بالات القطن .

لقد وصلا إلى نيو اولينز ولم يلبثا حتى رأيا نفسيهما يسيران في شوارعها الضيقة يتفرجان على أفنية الدور الحافلة بالزهور ، ويتطلعان إلى شرفات المنازل ذات الحديد المزخرف ، ويستمعان إلى أحاديث الملا حين الغريبة الذين رست سفنهم في هذا الميناء ترفرف عليها أعلام من كل أمة من أمم العالم . ففي هذه المدينة الفاتنة مناظر رائعة عجيبة

تسترعى أنظار هذين الفتيتين اللذين جاءا من غابات إينديانا ، وتجعلهما يفكران فيها .

وكذلك كان بها مناظر مؤذية تنقرز منها العيون ، لأن مدينة نيوا أورلينز هذه القديمة سوق من أسواق العالم الكبرى للاتجار في الرقيق . فعلى جميع الجدران التي حولهما كانت عين إيب تقع على إعلانات ملصقة عليها ، يعلن فيها أصحابها عن استعدادهم لأن يشتروا أو يبيعوا بالنقد عبيداً صالحين للعمل ، ذكورا كانوا أو أناثا . وخداما للمنازل أو فلاحين ليعملوا في الأرض .

وشاهد الفتيتان العبيد في السوق وهم يستعرضون عل منصة المزاد صاعدين هابطين ، لئلا يتمكنوا من أن يروا ما هم على وشك أن يزيدوا عليهم . فكان هؤلاء العبيد ينادون كما تباع الخيل والبغال في إينديانا . وكان المنظر مريعاً تنقرز منه عيون كل من يشاهدونه . ومع هذا كله ، فهو أمر قانوني مشروع كما كان يعرف إيب ؛ فقد سبق أن قرأ في قانون الولايات المتحدة أن للناس في جنوبي نهر الأوهايو الحق في أن يملكوا عبيداً ، فإن كانت تملكهم إياهم أمراً مشروعاً ، فشرأؤهم وبيعهم أمر مشروع كذلك . وخطر له أنه لا يتسنى وقف هذا الأمر إلا بتغيير القانون .

ولم تكن السفينة ذات القاع المفرطح تصلح إلا للسير في النهر في اتجاه مصبه ، وهذا ما دعا الفتيتين أن يصعدا في نهر المسيسيبي على

سفينة أخرى من تلك السفن النهرية التجارية البيضاء ذات المداخل التي يتصاعد منها الدخان . وعاد إيب إلى منزله قبل شهر يونيه فوجد أباه شرع يتحدث عن الانتقال من البيت من جديد .

لقد ظل إبراهيم لينكولن يعيش سبع سنين في مسقط رأسه عند كنتكى ، ثم قضى بعدها أربعة عشر عاماً أخرى في غابات إينديانا ، والوالآن فان ولاية إلينوى ذات المراعى المترامية الأطراف ستكون موطنه شطراً كبيراً من حياته .

ففى ١٢ فبراير سنة ١٨٣٠ كان إبراهيم لينكولن قد بلغ الحادية والعشرين من عمره ، وبعد مضى ثلاثة أيام على عيد ميلاده كان ينتقل مع أسرته إلى إلينوى .

وكانت العربة التي صنعها لتتنقل الأسرة وأمتعة أفرادها واقفة أمام الكوخ من عدة أيام ، وكانت عربة ضخمة مغطاة ، ذات عجلات كبيرة من الخشب الذى قطعه من جذع شجرة ، وكان يحركها ثوران لونهما أحمر ضارب إلى السمرة .

وعلى كبرها لم تكن لتكفى الأسرة . فاحتاجوا إلى عربة أخرى ، لأن ثلاثة عشر شخصاً من آل هانكس ولينكولن وجونستون كانوا جميعاً ذاهبين معاً ، ما عدا ساره أخت إيب فقد توفيت بعد زواجها بقليل . وكل الشباب الآن قد تزوجوا ما عدا إيب . فماتيلدا جونستون أصبحت زوجة دنيس هانكس .

وكانت الحالة ساره زوجه والد إيب هي التي اضطلعت بترتيب كل أفراد القبيلة الكبيرة وتنظيمهم في العربة وتهيئتها للرحيل ، كما قال دنيس .

وقال أيضاً أن إيب كان يُدخل عليهم السرور ويهجم طيلة الطريق بما يقصه عليهم من الحكايات ، ويلقى عليهم من النكات وهو سائر إلى جانب الثورين يضرب بالسوط في الهواء . وكلما ارتطموا في الوحل الذي كان يتجمد من جراء الصقيع احتال إيب بشكل ما لإخراجهم من ورطتهم ، وكذلك كان يسهر على كل شئ . . . وحدث مرة أن كلباً مسكيناً قد ترك شأنه وهو يعبر مجرى من مجارى المياه ، فلم يطق إيب أن يراه يرجف ويضطرب ، بل عاد أدراجه وخاض المجرى وراء الكلب لينقذه .

كان جون هانكس ، وهو ابن عم آخر لإيب ، هو الذي استحث أقاربه وحرصهم على أن يحضروا إلى إلينوى ، فقد أخبرهم بما فيها من التربة السوداء الدسمة ، وأراضى المراعى المنبسطة ، والعشب الذى ينمو حتى يبلغ طوله قامه الرجل ؛ فليس بها غابات تقطع ، ولا تلال رملية تحرث ؛ بل كل ما بها بضعة أحراش من الشجر وبضع رُبى وتلال مبعثرة هنا وهناك على ضفاف الأنهار .

وثم نهر وإقليم عُرفا بأسم سينجامون ، وهو لفظ هندى معناه أرض الرخاء الصالح للأكل .

أرض الرخاء الصالح للأكل ! هذا اسم حلو الرنين في أذن لينكولن ، فهو لا يرى مانعاً لديه من بيع مزرعته القديمة التي في إنديانا بأقل من الثمن الذي دفعه فيها كي يتيسر له أن يذهب إلى هذه الأرض السعيدة .

وبعد قضاء شتاء واحد فيها ، وقد تراكت الثلوج حتى بلغ سمكها سبعة أقدام ، أجمع القادمون الجدد أمرهم على أن الجو في مقاطعة سينجامون أبرد مما يستطيعون أن يتحملوه ، فانتقلوا إلى أرض أخرى تبعد مائة ميل جنوباً ، أو ما يقرب من ذلك ، ونزلوا مراعى جوس نست حيث عاون إيب والده على إنشاء كوخ آخر .

وهنا عاد إلى تفليق الأشجار من جديد ، وقيمها سياجاً متعرجة غير مستقيمة .

فهذه السياج المتعرجة الطويلة سوف تكون فيما بعد حدوداً ومعالم لتغير آخر كبير في حياته كما هي الآن كذلك .

فبعد أن فرغ إبراهيم لينكولن من تفليق الأشجار وتشقيقها ، وضع بلطته ، وودع أسرته ، وغادر المنزل ليشق طريقه في الحياة في هذا العالم . فقبل أن يبلغ سن الرشد كان كل عمله ، وكل ما يربحه يذهب إلى والده ، أما الآن فلا ! فقد بلغ الحادية والعشرين وصار حراً يذهب أينما شاء ، ويتصرف في حياته بالشكل الذي يستطيعه ويريده .

وكان قوياً ، ويعرف كيف يشتغل ، وقد ألمّ ببعض الإمام
بالقراءة والكتابة والحساب . فهذا كل عتاده . ومع ذلك ظل يأمل
ويحلم ويحاول أن يكون شيئاً مذكوراً .

وعرف ، وهو يطوق بذراعيه زوجة أبيه الطيبة — وقد ضمته
إلى صدرها بقوة — عرف أن خير صديقة له في هذا العالم ستظل
تثق به وتؤمن دائماً .

نيوسالم

تتكون قرية نيوسالم من سلسلة قصيرة من أكواخ من جذوع الشجر تقوم على دبرة عالية تطل على نهر سينجامون . وذات يوم من أيام صيف سنة ١٨٣١ هذا كان إيراهام لينكولن الفارع الطول غير الرشيق يسير وتبدأ في الطريق آتياً من عند النهر ، وحاملاً حزمة صغيرة . فقد جاء ليعيش في نيوسالم . وتصادف أن كان بجيئه في خير يوم صالح لأن يتعرف برجال القرية ، فقد كانوا مجتمعين في حفل انتخابي ، وشعروا أنهم بحاجة إلى كاتب آخر . وفي هذه اللحظة بدأ إيب الطويل غير الرشيق يتلصكاً في الشارع ، وقد ألقى ظلاً طويلاً في الشمس .

فقال رجل وهو ينظر إلى إيب بعين واحدة ، اسمع أيها الغريب ، لعلك تستطيع أن تعاوننا فيما نحن فيه . فهل تعرف بالمصادفة الكتابة ؟ فتبسم إيب ثم قال أظنني أستطيع أن أعمل شيئاً يشبه نبش الدجاج وجلس ؛ وظل طول النهار يدون أسماء الذين يعطون أصواتهم ، ثم وعاءها كلها في ذاكرته ، وكلما خفت الأعمال ، مال بكرسيه على الحائط وأخذ يتحدث عن أمور مضحكة سبق له أن رآها أو سمع بها عند ما كان في إينديانا . فمالت إليه قلوب الناس جميعاً .

جاء إيب ليعمل كاتباً عند رجل اسمه أو فوت ، في محل جديد

وهو محل لم يكن مع ذلك قد أنشئ بعد ، ولذا لم يمض زمن طويل حتى رأى إيب نفسه يخرج ومعه بلطته ، يقطع الأشجار ويشد بها ، ويبني بها المحل ؛ وكان « أوفوت » يفخر بما وفق إليه من استخدام مثل هذا الشاب اللشيط .

فقال : إن إيب لينكولن هذا ، يعرف أكثر مما يعرفه أى رجل رأيته ؛ وإنى لأراهن على أنه يقهر كل رجل فى مقاطعة سينجامون فى مباراة للبصارعة ، ويفوز عليه .

فرد عليه بيل كليرى هازناً : أحقاً ما ت...ة...ة...ول ؟ وكان لبيل كليرى هذا ، دكان مجاور اختص فيه ببيع الويسكى . — أتمنى أن أراه يصارع جاك آرمسترنج ، فسيجذب نفسه عدتد فى حرج شديد . وقال آخر من عصاة كليرى جروف ، وهى عصاة خشنة جافية : إنهم لم يحفلوا كثيراً بابيب هذا ، لأنه لم يذق طعم الخمر قط .

وعملت الترتيبات للمباراة . فقال إيب : إنه لا يجب مثل هذا النوع من الشد والجذب ؛ ولكنه يعلم أن عليه أن يبرهن على ما يستطيع أن يفعله . وتقاطرت الجموع من الأماكن النائية حوله ؛ وكان جاك آرمسترنج قى مكتنز العضلات قوياً كالثور ، على حين كان إيب خشناً مثل شجرة الجوز الأمريكى : وكانت ذراعه أطول من ذراعى خصمه ، ولذا تمكن من استبقائه على بعد ذراع منه ، مما أثار غضب آرمسترنج فركب رأسه ووضع كعب حدائه بين قدمي إيب ؛ ومع ذلك لم يشعر إلا وهو ملق

على ظهره طريحا على الأرض . فلما نهض ووقف على قدميه ، رأى
أفراد عصابته وقد تجمعوا على لينكولن يلوحون له بقبضات أيديهم
وعندئذ صاح بهم بظلمهم السابق وهو يشق طريقه وسط الزحام :
أن ارفعوا أيديكم أيها الأولاد ! فإيب لينكولن انما كان يقاتل قتالا
نظيفا نزيها . صالحوه ! فهو خير قتي حل بهذا المكان !

ظل إيب في المتجر ، بعد أن أتم بناءه ، يتجيب إلى الناس ، ويتخذ
منهم أصدقاء له ؛ وسرعان ما أدركه الزبائن ، المترددون على المتجر أنه
أمين كل الأمانة . فأيا كان ما يشترونه . . . من بن أو قماش أو ملح أو
سكر أو شاي أو جبن أو عسل أسود . . . — فإن إيب كان يوفيهم
حقهم منه كاملا .

وحدث ذات يوم أنه ترك امرأة تعود إلى بيتها من غير أن تستوفي
حقها من الشاي ، فعاد ولف ربع رطل من الشاي ، ومضى به يسير أربعة
أميال إلى كليرى جروف ليحمله إليها ؛ فلما رجع إلى البلدة ورأى الناس
يسخرون منه ويهزأون به لم يكن منه إلا أن ابتسم وقال . إنه يرى على
أية حال أنه لم يخسر بذلك شيئا ما ، فقد دعت هذه السيدة إلى عشاء ساخن
طيب ، ولولا ذلك لدفع ثمن عشاءه تسعة عشر سنتا كاملة في مطعم رطلدج .
على أنه قال في نفسه ، إنه كان يمكن أن يحظى بمشاهدة آن ،
آن رطلدج ، ذات العينين الزرقاوين والشعر الذهبي الفاتم . فان نظرة
واحدة منها إليه لتكفي لجعل فواده يزداد خفقانا سريعا ، وأذنيه

تحميران . ولكن كان لابد له أن يضحك . فما عسى أن تراه فتاة جميلة مثل هذه فيه ؟ وهو ذلك الفتى الحقيق الساذج الناشئ وسط النبات . وكان مع ذلك يعلم أن أباهما قد أثنى عليه لما سمعه يخطب في جمعية المناظرة الجديدة ، المنتمى إليها ، فقال السيد رطلدج :
إن هذا الشاب يحسن الكلام ، وكل ما يعوزه ليصل إلى مكانة سامية في الحياة هو الثقافة .

وقال المدرس صديق إيب : إذا شاء المرء أن يحسن كلامه فعليه أن يدرس النحو ؛ وإذا بايب يسير سبعة أميال ليقترض كتاباً في النحو ، وعكف عليه يدرسه الساعة بعد الساعة طيلة فصل الشتاء حتى ألم بقواعد النحو وحذقها .

ولما حل الربيع ، كان قد اتخذ له كثيرين من الأصدقاء ، لجعلوا يشجعونه ، حتى عقد عزمه على أن يجرب حظّه في ميدان السياسة ؛ وأراد أن يرشح نفسه عن مقاطعة سينجامون في المجلس التشريعي لولاية إلينوى . ولما حل موعد الانتخاب أعطى أصدقاءه من أهالي نيوسالم أصواتهم إليه ؛ ولكن لما لم يكن في المقاطعة عدد كاف من الناس يعرفون عنه شيئاً ، فقد فشل في الانتخاب .

وقيل أن يحدث هذا ، حدث شيء آخر . فقد قامت حرب البلاك هوك . . وبلاك هوك هذا ، زعيم كبير من زعماء الهنود عاد برجاله الشجعان ، وعبر بهم نهر المسيسيبي إلى موطنهم القديم في

إلينيوى . فأهاب حاكم الولاية بالناس أن يتطوعوا لطردهم من جديد ؛ فتطوع جاك آرمسترنج ، وتطوع شباب كليرى جروف فى الفرقة التى تكونت فى نيو سالم ؛ وقد سر إيب كل السرور أن اختير قائداً عليهم فأصبح اليوزباشى إبراهيم لينكولن .

ولكن ماذا يعلم لينكولن عن قواعد الحرب وعن نظمها ؟ إنه لم يكن يعرف سوى القليل غير . إلى الأمام سرا ، ، وقف ، ! ولكنه كان حاد الذكاء ويعرف كيف يستغل ذكاه .

فضى إلى الحرب فى شمال إلينيوى ، وصعد إلى ويسكنسن ، ولم يتوقف إلا بعد أن انهزم بلاك هوك هذا . فعاد إيب إذن إلى بيته وهو يقول إنه قتل الكثير من البعوض ولم يقتل هندياً واحداً .

وفى أثناء ذلك كان متجراً وفوت قد أفلس تمام الإفلاس وأصبح إيب عاطلاً عن العمل

فاقترح عليه بعضهم أن يكون حداداً ، ولكن إيب هز رأسه ؛ فالضرب على السندان طول النهار لا يسره وقتاً ما للاطلاع والقراءة . وحدث أنه صادف فى الجيش رجلاً يدعى ستيوارت يشتغل بالمحاسبة فتحدث إليه عن القانون . إن هذا ما يود أن يقرأ عنه الآن إذا ما عرف من أين يستعير الكتب اللازمة .

أما العمل فى متجر فيتيح له فرصة للاطلاع فى الأوقات التى لا يكون فيها زبائن ، وعلى هذا استقر رأيه على أن ينشئ متجراً

بالاشتراك مع قتي آخر يدعى برى . فاقترضا مبلغ ألف دولار ليشتريا بها ما يلزمهما من البضائع والسلع آملين أن يسددا ما اقترضاه عندما تبدأ شركة برى لينكولن في الرواج والربح . ولكن ذلك لم يحدث بحال من الأحوال ، فبرى لم يكن يهمة الا برميل الويسكى ، وإيب لم يكن يُعنى الا بمطالعة كتب شكسبير وبدراسة القانون ، والتزاور مع الناس الذين يحضرون الى المتجر لتسلم خطاباتهم ، فقد كان في ذلك الوقت (سنة ١٨٣٢) ناظراً لبريد نيوسالم وهو عمل هين ليس بالشىء الكبير ، ولكنه كان عملاً يطيب للينكولن ، إذ يخول له الحق في أن يقرأ أية جريدة تصل الى نيوسالم ، وبذلك يقف على مايجرى في واشنطن من حركات . أما كتب القانون فقد عثر بها صادقة في برميل مليء بكثير من الأشياء العتيقة البالية ، اشتراه ذات يوم بخمسين سنتاً اكراماً منه لرجل غريب .

واذ لم ينل المتجر الا عناية تافهة فقد تدهورت أحواله بالطبع وزال . فتوفي برى من جراء السكر ، وترك لينكولن يحتمل وحده عبء الدين كله - الألف دولار ، حتى صار في موقف أسوأ مما كانه في يوم من الأيام . واضطر أن يعود الى تفليق الأخشاب والقيام بشتى الأعمال كي يُمِش .

وفي الوقت ذاته كان ثمة شاب اسمه ما كنا مازل يربح من متجره أرباحاً طائلة ، وكان قد خطب آن رطلدج .

فاكتاب إيب المسكين كل الاكتاب ، حتى صار يذهب الى مخدعه وهو يخشى أن تطلع عليه شمس الغد . فهل قضى عليه أن يظل دائما حليف الفشل ؟ ألا يمكن أن يكون أبدا شخصا له شأن وقيمة ؟

نخرج ذات يوم يعمل بيلطته ، ويسائل نفسه عما اذا كانت تتاح له فرصة من جديد يجرب فيها حظه . وبينما هو كذلك صادف صديقا له في الطريق يتجه نحوه .

قال الصديق : أتعرف شيئا يا إيب عن مسح الأراضي ؟ ان كبير المساحين في مقاطعة سينجيان بحاجة الى مساعدته : قثم ألوف من الناس يقبلون الآن على السكنى فى إلينوى ؛ وبها أفدنة كثيرة من الأراضي يجب أن تمسح ، ومدن كثيرة يجب أن تخطط ، وأميال كثيرة من الطرق يجب أن تلسأ .

فأشرق وجه إيب ؛ لا لأنه يدري الكثير عن مسح الأراضي ، ولكن هل جهله هذا يقف حائلا دون تعلمه ؟ لا : فليس ثمة شيء يقف فى سبيل تعلم لينكولن ؛ ولا يمكن أن يقف فى سبيله شيء .

فاتجه أولا الى سبرنجفيلد ، وهى على بعد عشرين ميلا ، ليتحدث الى المساح ، وليحصل منه على كتاب فى مسح الأراضي . ثم طلب الى صديقه المدرس أن يساعده فى تعلم الرياضة ، وعكف يدرس الساعة بعد الساعة ، والليلة بعد الليلة ، حتى نحل جسمه ، وغارت عيناه وقلق عليه كل أصدقائه .

ونصح له السيد باولنج جرين أن يستريح ، ولويوماً واحداً ، وقال له تعال إلى منزلنا واسترح .

ولكن إيب لم يشأ أن يتوقف . ففي زمن قصير كل القصر ، لايزيد على ستة أسابيع ، صار مستعداً للعمل بأدوات المساحة .

فمضى معه جاك آرسترنج مساعداً له . وقبل أن يغادر المكان ، قامت حنا امرأة جاك بترقيع بنطلون إيب برقع من الجلد . وبينما هي تقوم بالخياطة كان إيب يحمل طفلها (ضَف) ويهزه في مهبه .

طاف إيب بكل أرجاء مقاطعة سينجامون ، يخطط الطرق والشوارع ، ويقيم فيها المعالم ، ومتى أنشأ كثيراً من الطرق الصالحة ، واكتسب أصدقاء أوفياء لن يلسوا أبداً أساليبه المضحكة ولا قلبه الرموف الرحيم .

وفي الخريف أعطاه كل هؤلاء الأصدقاء أصواتهم ليكون ممثلهم عن مقاطعة سينجامون في الهيئة التشريعية للولاية ، وبذلك تم انتخابه ؛ ومضى في سنة ١٨٣٤ الى عاصمة هذه الولاية في فنداليا في الفترة الأولى من انتخابه .

ولما عاد الى نيو سالم في فصل الربيع بعد هذه الفترة الأولى كان قد خطب الفتاة آن رطلدج الجميلة لتكون زوجة له .

ولم يكن أحد يدري أين ما كنا ماراً؛ فقد اختفى فمن عدة شهور مضت قبّل آن قبله الوداع وركب عربة المسافرين فاتجهت به شرقاً

بعد أن وعد آن بأنه سيعود سريعاً كي يتم زواجهما . ولكنه لم يعد ، ولم يكتب إليها .

فلما نظرت آن الى إيب المخلص الشفيق رأت فيه ما لم تكن رآته من قبل ، فوهبته قلبها وبادلته حباً بحب . إنه لم يشعر قط بمثل السعادة التي شعر بها في أمسيات هذا الصيف وهو يضع خطته للمستقبل . ولكن آن توفيت في شهر أغسطس . وكانت وفاتها ضربة تكاد تكون أكبر مما يستطيع أن يتحملة ، فألقى بنفسه على قبرها وجعل ينشج ويتهد ، وصار يسير وحده ليلاً على ضفة الهر ذهاباً وجيئة وسط أمطار الخريف ، ولم يجد في نفسه ميلاً الى التحدث الى أحد . وأخيراً مضى الى السيد باولنج جرين ، ونانسي ليةضى عندهما فترة من الزمن ، فعاوناه على أن ينظر الى المستقبل بعين الأمل من جديد .

ثم دخل الشتاء . وعاد هو إلى مكانه في هيئة الولاية التشريعية . وكان مشغولاً كل الشغل بوضع خطة لنقل عاصمة الولاية الى سبرنجفيلد في مقاطعة سينجامون ، وقابل البكباشى ستیوارت ثانياً ، فشجعه على مواصلة الدراسة حتى يصبح محامياً . وعلى هذا صار إيب يتردد في الصيف التالى على مكتب ستیوارت في سبرنجفيلد ليقترض منه كتباً في القانون . فظل يقترض الكتاب بعد الآخر ، وعكف على الدراسة الشهر بعد الشهر الى أن جاز الامتحان في النهاية وأصبح له الحق أن يمضى اسمه : السيد إ. لينكولن محام ومستشار قانونى

وبعد مضي ست سنوات كاملة على مجيئه الى هنا سائراً في الطريق من عند النهر ، حاملاً حزمته معه ، غادر إبراهيم لينكولن بلدة نيو سالم في ربيع سنة ١٨٣٧ واتجه الى مدينة سبرنجفيلد ، ليعمل شريكاً في مكتب المحاماة الجديد الذي افتتح باسم ستيفارت ولينكولن .

ولكن لينكولن كان فقيراً معدماً . وبينما كان راكباً جواداً اقترضه من بعض الناس كان عبء الدين القديم يلزمه ملازمة ظل طويل أسود ؛ وكان كل ما يمتلكه موضوعاً في حقيقتي سرجه . فلما وصل سبرنجفيلد ، لم يكن معه من المال ما يكاد يكفي لدفع إيجار حجرة يقطنها ؛ فلا غرو أن شعر بأن الحظ السعيد قد واثاه ، عندما عرض عليه جوشوا سيد الصغير أن يشاركه حجراته التي فوق المخزن .

مارى طود

كانت مدينة سبرنجفيلد خير مكان للآنسة الصغيرة ماري طود ،
للبحث عن الزوج الذى عقدت آمالها عليه . وكانت هذه المدينة قد
صارت عاصمة إلينوى الجديدة ، وزخرت بالسياسيين من الشبان ،
الديمقراطيين منهم والاحرار .

وكانت ماري طود فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، هيفاء ، جميلة
رشيقة ، تعرف على وجه التحديد ماتريد . وقد حضرت فى سنة ١٨٣٩
من لكسندجتون من أعمال كنتكى حيث كان أبوها روبرت طود رئيساً
للمصرف بها . ولكن ماري قالت :

«إن الرجل الذى اختاره زوجالى سيكون رئيساً للولايات المتحدة ،
وذلك ماكانت تقوله للتلميذات فى المدرسة ، وهو ما قالت لاختها
اليزابيث حتى قبل أن تفتح حقائبها ، أو تحل خيوط قبعنها المصنوعة
من « التفاه » ، وما إن نزلت هذه الفتاة من عربة المسافرين العامة
حتى أعلنت رغبتها وأفصححت عن مطمحها الذى تصبو اليه .

جاءت ماري إلى سبرنجفيلد لتعيش مع أختها وزوج أختها السيدة
والسيد ادواردز اللذين يملكان خيراً منزل فى المدينة ، وهو منزل مشيد
بالطوب الأحمر وله مدخل فسيح يدور حوله ، ونوافذ عالية ذات
ستور طويلة فضفاضة ، وأرضه مفروشة ببسط مرسوم عليها ورد

أحمر . لقد كان يتناجى بالاضافة إلى سبرنجفيلد ، ومع ذلك لم يكن بالذى يرضى ماري .

فالبيت الوحيد الذى ترضى أن تعيش فيه هو البيت الأبيض فى واشنطن . فكانت تحلم به ، وبالثياب الفاخرة التى ترتديها ، حينما تقف عند إحدى نوافذه الطويلة التى فى الدور الأعلى مساء يوم من أيام الشتاء تضع وردة حمراء فى شعرها .

وكانت كذلك ترقب شاباً ، جاء يصعد فى الممشى المغطى بالطوب الأحمر ، ليزورها . وهو شاب نحيل الجسم ، وقصير كل القصر ، ومع ذلك فلم يكن يخفى على من يرى مشيته أنه كان يشعر بأنه ضخم وقوى . ذلك هو استيفن دجلاس ، شاب فى الحزب الديمقراطى ينتظر له مستقبل زاهر .

وكانت ماري قد قابلته مرة ورقصت معه فى مرقص كبير فى بداية الموسم ، وقد اختارته من بين أمثاله بوصفه أحد اثنين سياسيين يحتمل كل الاحتمال أن ينجحا .

أما الآخر فهو السيد إبراهيم لينكولن من الأحرار ، وهو لا يكاد يعرف كيف يرقص ، إلا أن له طريقة غريبة ، حتى أن العتاة كانت تزداد له حباً كلما جاء لزيارتها .

وقالت لها أختها ذات مساء وهم يتناولون الغداء : ولكن أرجو

ألا تكون عندك أية فكرة عن التزوج به ، فهو لا يناسبك بحال من الأحوال .

وقال لها زوج أختها : لا تحفلي به يا ماري ، فأصله كما تعلمين من قوم فقراء ، لا يقر لهم قرار ، من حُثالة البيض . وهو لا يعرف حتى أن يقرأ أو يكتب .

فبرقت عينا ماري . إذ ليس لأحد أن يقول لها ماذا يجب عليها أن تفعل . ان إبراهيم لينكولن حاضِر الليلة نفسها لزيارتها ، وقد عقدت عزمها على أن تتزوجه ، ثم قالت : ذلك لأنني أرى أنه سيكون رئيساً للولايات المتحدة يوماً ما .

وبعد أن فرغت من هذا القول انتقلت بسرعة وخرجت من الغرفة ، ثم صعدت إلى الدور الأعلى لتضع في شعرها الكستنائي الناعم تاجاً كاملاً من الورد الأحمر .

وفي الوقت نفسه كان إبراهيم لينكولن في حجرة منخفضة السقف على سطح مخزن صديقه جوشوا سييد يأخذ زيلته ويتهاى لهذه الزيارة ، فكان مشغولاً بطلاء حدائه الطويل ، ويمشط شعره الأسود ، وينظر وجهه في مرآة غير مستوية السطح ، ويضع على رأسه قبعته السوداء الجديدة العالية .

وقال في نفسه : إنه لفتى عادي جداً ، وأقل من أن يزور سيدة صغيرة جميلة مثل هذه ، ولكنه مع ذلك مضى في سبيله إليها .

وبعد قليل كان في البيت ذى الطوب الأحمر يجلس قبالة الأنسة ماري في البهو، وقد فتن بها أيما افتنان . وكانت هي مشرقة الطلعة مريحة ، ثم مال إلى الأمام قائلاً بأن يراقبها وهي تتحدث إليه حديثاً ذا شجون ؛ فتحدثه في اللغة الفرنسية والهندسة والسياسة ؛ وقبل أن يخطر الأمر بباله وجدا نفسيهما جالسين متجاورين على المقعد الطويل المصنوع من خشب الورد ، وقد اتفقا على الزواج .

ولكن لم يلبث أن تولاه القلق واستولى عليه الانزعاج . إذ كيف يستطيع أن ييسر لها السعادة يوماً ما ؟ انه لن يستطيع ذلك لما فيه من الفقر والحاجة ، ولذا ظل قلق البال غارقاً في أفكاره ليل نهار . ولقد حاول مرة أن يقول لها إنها قد أخطأت سبيلها في رضاها بالزواج منه ولكنها بكّت وأبت أن تصنى إلى ما يقول ، فأضحى بانثسا تعسا وظلا عدة شهور لا يتقابلان .

وذات صباح في شهر نوفمبر عزموا على الزواج فجأة وعلى عجل ، فطلبوا الواعظ القسيس ، ودعوا جماعة صغيرة من الأصدقاء . وتزوجا هذا المساء نفسه في بهو آل ادوارد على ضوء المصابيح .

ففي الرابع من نوفمبر سنة ١٨٤٢ أصبحت الأنسة ماري طود زوجة ابراهام لينكولن ، ولكن عليها أن تنتظر ثمانية عشر عاماً قبل أن تعرف أن الرجل الذي اختارته زوجها سيصبح حقاً رئيساً للولايات المتحدة ؛ فيبدو أن الحظ قد فارقه طيلة هذه السنوات الطوال

المظلمة ، على حين كان حفظ استيفن دجلاس فى صعود وازدياد .
وفى السنة التالية نفسها ، سنة ١٨٤٣ ، تم انتخاب هذا الديمقراطي
الشاب الواصل من نفسه عضواً فى مجلس النواب فمضى مرحا إلى
الكونجرس وإلى عاصمة الأمة .

وكانت ماري وإبراهام لا يزالان يسكنان هذه السنة فى حجرة
واحدة بفندق جلوب حيث ولد لهما ابنهما بوبى ، وسمياه على اسم
جده طود : روبرت طود لينكولن .

وفى السنة التالية ادخرا من المال ما يكفى لشراء بيت صغير أيضاً
فى طرف المدينة ، وكانت ماري تقوم بتنظيفه ، وبطهى الطعام ،
وترعى شئون طفلها ، إذ سرعان ما قد صار عندها ولدان — وكانت
تخيط ملابسها ، وعملت ما فى وسعها لتجعل زوجها غير المرتب فى زيه
يحتفظ بسترته ورباط رقبته ، ونالها من جراء ذلك الكثير بما كان
يثبط هممتها أحياناً ويزيد متاعبها حتى كادت أن تصرخ . أما لينكولن
فكان يقوم بتقديم العلف للحصان ، ويحلب البقرة ، ويجرف الثلج ،
ويشذب الكلاء ، ويقطع الأخشاب ويُعنَى بشئون عمله فى المحاماة
ويحاول أن يكون صبوراً مع ماري .

وأخيراً انتخب سنة ١٨٤٦ عضواً فى الكونجرس ، ولكن فى
السنة عينها أصبح ستيفن دجلاس عضواً فى مجلس الشيوخ ؛ وهكذا
ظل دجلاس يتقدم إلبه ويسبقه بخطوات واسعة .

ومضى لينكولن إلى واشنطن راجياً أن يوفق إلى الإتيان بأعمال ترضى الأحرار الذين انتخبوه في إلينوى، ولكنه بدلاً من ذلك ألقى خطاباً استثارهم وجعلهم يستشيطنون غضبا عليه إذ قال لهم إن الحرب القائمة وقتئذ في سنة ١٨٤٨ بين الولايات المتحدة والمكسيك حرب خاطئة . وكان يعتقد مخلصاً أنها كذلك ، ولكمهم من أجل هذا راحوا ينزونه بالقباب فظيعة حتى بلغ بهم الأمر أن قالوا عنه إنه خائن .

وعلى هذا عاد إلى بيته بعد انقضاء مدته . فألقى حقيبته المصنوعة من السجاد في ردهة البيت الصغير ، وعلق قبعته السوداء العالية على مشجب في الردهة — كل ذلك وهو حزين كسير القلب .

وقال للسيدة لينكولن انه يرى أن عمله في السياسة قد انتهى . ثم قال : إلا إذا أردت أن تذهبي معي إلى أورجون حيث يمكن أن أعين حاكماً عليها .

فصاحت ماري بصوت حاد مرتفع : أورجون ! أليست سبرنجفيلد ميتة موتاً كافياً ؟ ما الذي يدعونا إلى الانتقال إلى أورجون لندفن أنفسنا فيها ؟ .

فقال صابراً : حسناً يامولي حسناً ؛ إنما هو اقتراح عرضته فلنبق هنا إذن .

المحامى

وفى صباح اليوم التالى كانت شمس الصيف حامية ولينكولن يسير إلى مكتبه؛ وكانت الريح تهب من المراعى قتشق التراب ، دوائر دوائر عبر ميدان البلدة، وسلام دار المحكمة ، وجعلت اللافتة ذات الحروف الذهبية المكتوب عليها :

لينكولن وهرندن

تأرجح فى الهواء لما مر لينكولن تحتها ليصعد على السلم الخشبية . ثم وقف لحظة فى طرف ردهة ضيقة وحرك يده مقبضاً قلقاً غير ثابت ، فانفتح الباب وظهرت حجرة صغيرة قابضة للنفس لا ينفذ منها النور الا من نافذة قذرة ، وكان بها مائدة ألقيت عليها أكوام من الصحف فى فوضى بالغة .

وجلس شاب منهمك فى قراءة إحدى هذه الصحف ، فرفع نظره ثم وثب واستوى واقفاً على قدميه . وكان هذا الشاب هو وليام هرندن شريك لينكولن .

فقال ، لينكولن السيد لينكولن لقد عدت . هانت هنا ا

فقال لينكولن الرجل الأسن : نعم هاندا يا بيلي ا

ولكنه رأى أنه ليس من العدل فى شيء أن يبدأ من حيث فرغا

فقد كان يبلى يقوم بعبء العمل كله في البلد ؛ على أن يبلى كان ينظر إلى الأمر من وجهة أخرى .

ألم يعاونه المستر لينكولن على أن يصير محامياً ؟ أيمن أن يلسى أبداً كيف أنه كان شاكر أكل الشكر عندما طلب منه السيد لينكولن أن يكون شريكاً له ، ولا كيف كان غفوراً لما رأى اسمه يلعب بحروف ذهبية مرقومة على هذه اللافتة ؟

إن مثل هذا الإخلاص العميق لا يمكن أن يقاوم ، فبدأت ابتسامة لطيفة على وجه لينكولن الحزين وتنهت تنهداً عميقاً عندما رفع قبعته السوداء العالية ، ليلقيها على المائدة مقلوبة ، ثم وضع فيها خطاباً ، وكان بها كالعادة عدة مظروفات أخرى وعدة أوراق وضعها فيها زيادة في الحرص عليها .

ثم خلع سترته الطويلة المصنوعة من الكتان ، وفك رباط رقبعته وجلس ليسترخ على مقعد كبير من الخشب مائل نحو الحائط ميلاً كبيراً ومستنداً إليه .

وعندئذ أصبح على استعداد لأن يقص ما فعل ، ويحكى عما رأى في الشرق ، ويجيب عن أسئلته الكثيرة المتنوعة .

فكيف كان شكل واشنطن ؟ ومبنى الكابيتول ؟ هل قابل دانيال وبستر وهنري كلاي ؟ وما كان رأيه في شلالات نياجارا ؛ وبُستون وفيلادلفيا ؟ والسكك الحديدية التي تنشأ ؟ وهل حلت محل

عربات المسافرين العامة تماماً في الشرق ؟ والأراضي الجديدة التي حصلت عليها الولايات المتحدة من المكسيك — يقصد كاليفورنيا وكل الجنوب الغربي العظيم . هل سيسمح بالريق في هذا الإقليم الجديد أم لا ؟ وقبل كل شيء ماذا جرى في أسواق الرقيق التي في واشنطن ؟ ألم تكن ثم وسيلة للتخلص منها ؟ أو بالأحرى للتخلص من الرق تخلصاً تاماً ؟

ثم قال هرنندن في عزم وجد : « احموه ، ألغوه ، تخلصوا منه ! هذا ما يجب أن يعمل ، فأنصار الإلغاء على حق مطلق ! » فرد عليه لينكولن في رفق وهدوء : « لا ! لا ! لا أوافقك . الرق خطأ لاشك ، ولكني أرى أننا إذا تركناه وشأنه حيث هو فإنه سيزول تدريجياً فالذي علينا أن نعمله هو منعه من أن ينتشر إلى أي إقليم جديد ، ثم لبث صامتا برهة ينظر من النافذة ، فان شيئاً قاله ذكره بقصة مضحكة سبق أن قصها على الناس ، وهذه بدورها ذكرته بقصة أخرى غيرها . ثم خطر له أن ميعاد الغداء قد قرب وأن زوجته لا بد أن تكون في انتظاره ، ذلك إلى أنه قد وعد أن يلاعب الصغار . وعلى هذا فغير له أن يتسلل ويعود غداً صباحاً ليقف على مجرى الأحوال . ثم مال بنفسه إلى الأمام وألقى قدميه على الأرض محدثاً بهما ضجة غير قليلة وقال : « لنفسه : اعمل على أن تكون محامياً قديراً ، أقدر مما أنت الآن . »

فهذا هو أكبر شيء تعلته من ذهابي إلى الشرق ؛ فهؤلاء الناس الذين فيه متعلون خيراً منا ، ومدرّبون خيراً منا وفي استطاعتهم أن يبرهنوا على أية نقطة برهنة لا تدع ظلاً من الشك لأحد . ولسوف يأتي هؤلاء الرجال إلى هنا يوماً ما ، وسأكون أنا مستعداً لملاقاتهم ، وسأمضي واستحضر كتاباً في الهندسة وأدرسه وأحاول تدريب عقلي تدريباً يجعله يفكر تفكيراً واضحاً مستقيماً مثلما يفكرون .

وبينما كان على وشك أن يعود إلى الجلوس ، إذا بالباب يفتح فجأة . وما هو بوني جاء ليخبره أن أمه تقول له إن عليه أن يحضر إلى البيت فوراً فالغذاء قد جف كله وفسد .

وأخيراً انقضت أيام الصيف الحارة يوماً إثر يوم ، وجاء شهر سبتمبر . وذات صباح كان بوني وأخوه الصغير جالسين تحت الشجرة التي عند البيت ويبد كل منهما تفاحة كبيرة صفراء يأكلها ، على حين كان أبوهما يسرج دتوم العجوز ، في العربة ذات المقعد الواحد ، وألقى بحقيبته القديمة البالية المصنوعة من السجاد ، وشمسيته الباهتة اللون ، وطلب من كل من الطفلين دحضنا ، كبيراً وقبلة ثم مضى بسبيل ما كان يسميه دركوب الدائرة ،

وأيا كان مدلول هذه العبارة فأنها رنت في آذانهم على أنها شيء مثير حقاً ، وكذلك كانت في نظر والدم .

د فركوب الدائرة ، جزء من عمله في المحاماة ، وهو عمل كان إبراهيم لينكولن يحبه أكثر من أي عمل آخر .

ففي المراعى المكشوفة التى تحت قبة السماء الواسعة مجال كبير من حيث المكان والزمان لمن يريد أن ينطلق فيهما بروحه وب عقله .

« فركوب الدائرة ، معناه فعلا الطواف فى دائرة من البلدان الفقيرة مع القاضى دافيد المرح السمين ومع غيره من المحامين الأصدقاء .

وكانت كل بلدة مركزاً لمقاطعة من مقاطعات ذلك الجزء من الإينوى . فلم يكن فى بلدة واحدة فقط ، ولا فى مركز واحد ، من الأعمال ما يمكن

لشغل وقت المحامى ، فلا غرو أن كان القاضى والمحامون يطوفون فى كل ربيع وخريف بالبلاد يعقدون فيها محكمة للبت فى القضايا

وفى المساء يجتمعون فى حجرة من حجرات الفندق الصغيرة يستمعون بمجالسة بعضهم بعضاً ، ويقضون نصف الليل فى قص الحكايات .

وكانوا يحدثون فى كل مدينة يحلون بها حركة أشبه بما تحدثها فرقة من فرق التمثيل المتجولة .

وكانت عبارة « جاء لينكولن » تنتشر بين أهالى البلد بسرعة لأنه كان محبوباً ، فكانت قاعة المحكمة مزدحمة دائماً كلما جاء ليرافع . وفى استطاعته أن يستبكي المحلفين أو يضحكهم ضحكا عالياً . هذا ، وكان هو نفسه منظرأ خليقاً بالرؤية عندما تراه يذرع القاعة ، خالعا ستريته ، وواضعا إبهامه فى الحمالاة المفردة التى تحفظ بنظرونه المجمع ، ويتكلم كأن مصير موكله متوقف على كل كلمة ينطق بها .

وكان كثير المفاجآت . ففي اللحظة الحرجة تراه يدفع بشيء لم يكن يتوقعه أحد ، مثل التقويم في قضية « ضف » ، آرسترنج و«ضف» هذا هو ابن جاك ، صديق لينكولن القديم ، وهو ذلك الطفل نفسه الذي كان إيب يهره في مهبه . فقد اتهم بالقتل وبدأت الأدلة كلها ضده ، وكان أبوه قد توفي ولكن أمه حنا المسكينة حضرت المحاكمة في قاعة المحكمة لابسة قبعتها الشمسية القديمة . وكانت كلما وقف شاهد ليبدل بشهادته توترت أعصابها وأخذ منها القلق كل مأخذ .

قال أحد الشهود : لقد شاهدته عندما ارتكب فعلته ، فقد كان القمر مضيئاً وكل شيء واضحاً . كان الوقت أشبه بالنهار !

فسأله لينكولن هل أنت متأكد من هذا ؟

فأجاب الشاب بأنه متأكد وأقسم على ما قال .

فاستخرج لينكولن من جيبه تقويماً صغيراً من الورق وفتحته عند الشهر المطلوب وأظهر أن في تلك الليلة المعهودة لم يكن ثم قمر ، ولجا إلى المحلفين يكسب عطفهم فبرءوا ساحة الفتى .

وكان مؤسسوا إحدى البلاد الجديدة معجبين كل الإعجاب بـلينكولن فطلبوا منه ذات يوم أن يسمح لهم باطلاق اسمه على البلد .

فقال إن ذلك نخرألى وشرفاً ، ثم أردف ذلك بقوله وعلى فه ابتسامة عريضة — ولكنى أنصح لكم ألا تفعلوا ، فلست أعلم شيئاً اسمه لينكولن بلغ شأننا يذكر .

ثم ابتسم ؛ ولكنه ظل أيا ما كثيرة ، وتلك الفكرة المظلمة السوداء
تطيف به وتدفعه إلى الارتطام فى مهاو من الكآبة والكرب الداعى
إلى اليأس والقنوط . أليس له أمل بعد ذلك كله ؟ أليس أمامه
أى مستقبل زاهر ؟

فها هو ستيفن دجلاس قد أصبح عضواً فى مجلس الشيوخ ورئيساً
للجنة الأراضى الجديدة ، وهى لجنة لها أهمية عظيمة ؛ وهام الناس
يتحدثون عنه على أنه رئيس الولايات المتحدة .

أما هو — إبراهيم لينكولن — فما زال محامياً مسكيناً من محامى
الآرياف ، لا يكاد أحد خارج ولايته يعرف عنه شيئاً .

الرئيس

ذات يوم من أيام الربيع كان لينكولن في بلد من تلك البلاد الصغيرة القريبة من دائرة طوافه فوردت الأنباء من واشنطن بأن السناتور ستيفن دجلاس سيعود إلى موطنه إلينوى . وكان أصدقاء هذا الشيخ الذائع الصيت الحميمون يلقبونه « بالعملاق الصغير » ويقولون عنه إنه حضر ليشرح لأصدقائه المعجبين به قانونا معنا ، وهو قانون بشأن الرق ، أقره الكونجرس عام ١٨٥٤ قبيل أن تصبح كلداس مستعدة لأن تكون ولاية ، وكان السناتور دجلاس نفسه هو الذي اقترح هذا القانون وهو في رأيه قانون صالح كل الصلاح .

ولكن لينكولن لم يوافق على هذا الرأي . فطيلة ذلك المساء كان المحامون في حجرة القاضي الصغيرة بالفندق يتناقشون في هذا القانون الجديد ، وفي مشكلة الرقيق الفظيعة ويتناولونها من شتى نواحيها . وهي مشكلة كانت تبدو لانهاية لها .

فكلما انضمت ولاية جديدة إلى ولايات الاتحاد عادت هذه المشكلة إلى الظهور . ولما كانت الولايات المتحدة كلها شرق نهر المسيسيبي ، لم يكن حل هذه المشكلة بالشئ العسير ، فنهراً الأوهايو كان يفصل الولايات التي يباح فيها الرقيق عن الولايات التي تحرمه . فكل ما كان على الكونجرس أن يفعله كلها انضمت ولاية جديدة ، هو أن يتأكد من عدد ولايات الرقيق وعدد الولايات المتحدة .

ولكن الولايات المتحدة قد امتدت الآن الى ماوراء المسيسيبي حيث ينتهى نهر الأوهايو وبذلك زال خط التقسيم القديم؛ وعلى هذا فكلما عرضت المشكلة ازدادت معالجتها صعوبة، وكلما حاول الكونجرس أن يرضى الفريقين، اللذين يطالب أحدهما بالمزيد من ولايات الرقيق ويعارض ثانيهما فى الاستكثار منها، كانت النتيجة أن أحداً لم يكن راضياً، ووقع اللوم كله على الكونجرس .

وعندئذ قال المستر دجلاس لم يتعب الكونجرس نفسه أكثر من ذلك إذن ؟ دعوا أهل كل ولاية يقررون بأنفسهم ان كانت ولايتهم ستكون ولاية رقيق أو ولاية حرة . وهذا هو القانون الجديد . وقد جرب فى الولاية التى تسمى الآن « كلساس الدموية » بسبب ما أحدثه ذلك من القتال وإراقة الدماء بين الذين استقروا فى كلساس هذه . وقال لينكولن إن هذا الأمر نفسه سيحدث حتما حينما يطبق هذا القانون .

وبعد أن غادر المحامون الحجرة بمدة طويلة ظل لينكولن يتحدث ويفكر فى هذا القانون إلى أن غلب النوم على القاضى واستغرق فى وادى الأحلام . أما لينكولن فلم يستطع النوم ، بل ظل جالسا على حافة سرير القاضى وهو مرتد قيص نومه الأصفر الطويل يقلب المسألة فى فكره ويدرسها من شتى نواحيها .

فكيف تحل مسألة الرقيق المستعصية هذه حلا نهائيا ياترى ؟ إنه

لا يدري . ولكنه يعلم أن الأمة لا تظل على الدوام ، ونصفها ولايات رقيق ، والنصف الآخر ولايات أحرار؛ على حين أن الواجب أن تكون كلها نوعاً واحداً ، فاما هذا وإما ذاك؛ فلا جدوى من التهرب من هذه المشكلة أكثر من ذلك ؛ فيجب أن تعرض ، ويجب أن نجد لها حلاً . ولما طلع الفجر واستبان من النافذة ، كان إبراهيم لينكولن قد اتخذ قراره العظيم الذى كان نقطة التحول فى حياته .

ذلك أنه تحدى ستيفن دجلاس أن يدافع عن القانون الذى سبق له أن أيدّه وناصره ، وذلك فى عدة مناظرات تعقد بينهما .

ولم يتردد السيد دجلاس فى قبول التحدى ؛ فإذا يخشى من هذا المنافس القديم الذى تخلف عنه الى هذا المدى فى ميدان السياسة ؟

وجرت المناظرات فى صيف سنة ١٨٥٨ فى سبع مدن صغيرة فى ولاية إلينوى ، وكانت كل مناظرة تزيد فى تهيج الشعب وتحمسه . فتقاطرت الجماهير من جميع البرارى المحيطة ، تغشاهم سحب من التراب . جاءوا على ظهور الخيل ، وفى عربات تجرها الثيران ، وفى عربات السفر العامة ، وبالسكك الحديدية الجديدة بحسب المدى الذى وصلت اليه . وكانت هذه هى الوسيلة التى جاء الشيخ المحترم السيد دجلاس بها ، بوصفه ضيفاً على السكة الحديدية . أما لينكولن فكان يلتقل من بلد الى بلد بأية وسيلة يستطيع أن يلتقل بها .

وكانت الفرق الموسيقية تعزف فى كل بلد ، والباعة المتجولون

يتجرون في الهدايا وأنواع التذكارات ، والجاهير تتزاحم لرؤية
ستيفن دجلال العملاق الصغير وهو يواجه ، إيب ، قاتل العملاق ،
في معركة كلامية . فتقدم المتصارعان إلى المنصة الخشبية المغطاة بالقماش
الأحمر والأبيض والأزرق ؛ وكان أحد المتصارعين قصيرا أكل القصر
يتلوه مناظره الآخر الطويل الفارع الطول .

وكان السيد دجلال يتقدم أولا إلى المنصة فيحيي الحاضرين
والمصوتين له بأن ينحنى لهم انحناء رشيقا ، ثم يميل رأسه نحو الخلف ،
فتجري الالفاظ من فمه متدفقة رنانة ، وهي الفاظ حرص فيها كل
الحرص على ألا يذكر شيئا عن الرقيق قد يغضب أحدا من الذين
يحتمل أن يعطوه أصواتهم في الانتخابات القادمة . فان هذا ما كان
يفكر فيه فعلا .

ثم يصعد لينكولن بساقيه الطويلتين ويتقدم ؛ وبدأ صوته في البداية
عاليا ، وحادا ، ولكن الالفاظ التي نطق بها كانت الفاظا بسيطة يسهل
على كل امرئ أن يفهمها ، وكانت قوية سداها ولحمتها الإخلاص ،
وتصيب مشكلة الرقيق في الصميم ، تلك المشكلة التي قسمت الولايات
المتحدة بعضها على بعض . فكل ما كان يفكر فيه هو انقاذ الاتحاد ،
لا ما سيحدث له هو فيما بعد ا

وبينما كان دجلال يصنى الى ما يقول تولته الدهشة في البداية ،
ثم الاضطراب ، فالغضب فالفرع ؛ وشعر بأنه قد أخرج ، ووقع في
الحبالة ، وارتطم .

سؤال واحد مباشر لم يستطع التخلص منه ، ومع ذلك لم يتمكن من الإجابة عنه لا سلباً ولا إيجاباً ، خشية أن يفضب نصف الحزب الديمقراطي ، فهو لم يحسر على إغضاب أعضاء حزبه الديمقراطي من أهالي ولاية إلينوى الحرة . ومن ثم فقد خسر بكلمة واحدة تأييد جميع الديمقراطيين في الجنوب الذين كانوا يؤمنون بالرقيق .

هذا ، وقد نشرت القصة الكاملة لمناظرات لينكولن ودجلال في الجرائد في كل أنحاء البلاد .

وأخذ الناس يتساءلون عن يكون هذا الرجل ابراهام لينكولن الذي في إلينوى ؛ فقد كانوا يودون أن يسمعه يتكلم ، فتوالت عليه الدعوات من قريب ومن بعيد حتى وصلته من مدينة نيويورك ذاتها . ثم تكون حزب جمهورى جديد من أولئك الذين يريدون أن يعملوا على وقف انتشار الرقيق ، وحلوا محل حزب الأحرار القديم ، واختار هذا الحزب الجديد ابراهام لينكولن في سنة ١٨٦٠ ليكون مرشحه لرياسة الولايات المتحدة ؛ وعقد مؤتمر في شيكاغو نقلت اليه فلق الأشجار التي سبق أن أعدها لأنشاء سور حول أرض هذا المؤتمر ثم جمعت فلق أشجار أخرى وشنت في السفن إلى مختلف أنحاء البلاد ، عندما قامت المعركة الانتخابية لجعل إيب الأمين مفلق الأخشاب رئيساً . ولما ظهرت نتيجة الانتخابات في ٤ نوفمبر اتضح أنه هو الذى فاز فيها .

وانهزم ستيفن دجلاس ، لأن الديمقراطيين الجنوبيين انفصلوا وأبدوا رجلا آخر ، فكان ذلك أشبه ما يكون بحزمة العصي التي وردت في إحدى أساطير إيسوب ، والتي لم تكن تنكسر إلا بعد أن انحلت وتوزعت . فللم ينشق الحزب الديمقراطي قسمين لظل قويا ولفاز . أصبحت البلاد الآن في ضجة وحركة كبيرة ، فقد غضب الديمقراطيون الجنوبيون وجُن جنونهم من أن ينتخب جمهوري أسود ، — وكذا كانوا يعتقدونه — رئيسا للاتحاد ، فهددت الولايات الجنوبية بالانسحاب من الاتحاد اذا عاش حتى يقسم اليمين في الرابع من مارس . ووصلت لينكولن خطابات يهدده فيها مرسلوها بالقتل اذا تجرأ وترك سبرنجفيلد قاصداً واشنطن . فبدت هذه الشهور الأربعة من نوفمبر الى مارس طويلة في نظر لينكولن لانهاية لها .

ولكن الأمر لم يكن كذلك في نظر السيدة لينكولن ؛ فليست الأربعة الشهور بالزمن الطويل الكافي لتفصيل الملابس الجديدة والقبعات والشيلان وأنواع الريش والورد وغيرها مما سترتيده وتتجمل به أخيراً في البيت الأبيض في واشنطن .

وفي يناير نزل لينكولن في الولاية ليزور سيدة عجوزاً ، وينظر الى عيها ، ويشعر بذراعيه تطوقانها مرة أخرى . فقد توفي أبوه ، ولكن ساره لينكولن بوش ، خير صديق له ، كانت لاتزال على قيد الحياة يعيش في الكوخ القديم . فما أسعدها برؤية ولدها ، هذا من جديد ا

على أنها هي الأخرى كانت تشعر بالحزن في قرارة نفسها بشكل ما ؛
فرويتها إياه هذه ستكون آخر مرة تراه فيها .

وقبل أن يغادر لينكولن سبرنجفيلد يوم واحد ذهب الى
مكتب الحمامة ليودعه .

فقال « يايلي ، دع اللافتة القديمة على ما هي عليه حتى اذا ما عدت
ثانية عملنا معاً بادئين من حيث تركنا العمل ،
وأخيراً حل شهر فبراير ، وجاء ذلك الصباح الذي آذن
بساعة الرحيل .

وكانوا خمسة : روبرت ، وقد بلغ الثامنة عشرة من عمره وكان
ذاهباً ليلتحق بجامعة هارفارد ؛ والولدان الصغيران ، وكانا ذاهبين الى
واشنطن ؛ ووليام ، وكان في الحادية عشرة ، وتاد (مختصر تادبول)
واسمه الحقيقي توماس ا

وكان صباحاً بارداً ؛ وخيم الضباب والدخان الصاعد من مدخنة
القاطرة الصغيرة الشبيهة بالقمع — خيم على الجمهور المحتشد في محطة
السكة الحديدية ، ووقف لينكولن على الرصيف الخلقى ، وعليه قبعته
العالية ، وعلى كتفه شال . وقال من صميم فؤاده ، وهو ينظر الى تلك
الوجوه الحبيبة اليه :

« أصدقائي ! لا يستطيع إنسان أن يقدر شعوري بالحزن والآسى
على هذا الفراق ، فاني مدين بكل شيء لهذا المكان ولحنوّ هؤلاء

الناس وإني لأغادره الآن وأمامي واجب أشق ما كان على عاتق واشنطن لنثق بالله الذي في قدرته أن يكون معي ، ويظل معكم ، وفي كل مكان ، يُفيض على الناس الخير ؛ ولنأمل ، ولنثق أن كل شيء سيكون مع ذلك على ما يرام . وإني لأترككم في رعاية الله ، وأرجو أن تستودعوني إياه في صلواتكم أودعكم وداعا قلبيا . .

وصفر القطار ، ثم أخذ يتحرك . وبقي الشيخ الطويل الواقف على الرصيف يصفر شيئا فشيئا حتى اختفى القطار وسط الضباب . وقبل أن يصل لينكولن الى واشنطن كان قد حدث ما يخشاه في فبراير سنة ١٨٦١ ، فقد انقسمت الولايات المتحدة بعضها على بعض . فانفصلت كارولينا الجنوبية وست ولايات أخرى من ولايات الجنوب ، واختارت جيفرسن دافيد رئيسا عليها ، وأنشأت دولة جديدة باسم الولايات المتحالفة الأمريكية .

وحدثت تهديدات كثيرة باغتيال لينكولن ، فأقيمت على طول الطريق جنود للحراسة يوم تلصيه في واشنطن ؛ ووقف جندي عند كل نافذة في مبنى الكابيتول نفسه ، كما وقف خمسون جنديا تحت المنصة الموشاة بالأعلام والتي أقيم عليها الاحتفال .

وسار السيد بوكانان الرئيس السابق الى مقعده يحيط به غيره من موظفي الحكومة ، وكان في حالة عصية ، مضطربا ؛ على حين بدا

لينكولن هادئا رابط الجأش . وكان همه الوحيد ، عندما وقف يتكلم ، أن يعرف أين يضع قبعته العالية ، فتناولها منه شخص كان واقفا خلفه وحملها له . ولم يكن ذلك الشخص غير ستيفن دجلاس نفسه !

ووجه لينكولن خطابه أساسا الى مواطنيه غير الراضين ، طالبا منهم أن يفكروا في هدوء ، وألا يعملوا شيئا في عجلة وتسرع . وقال في ختام كلامه — لن تكون هناك حرب الا اذا بدأتوها أتم .

ثم نهض كبير القضاة ، وكان شيخا عاليا السن محنى الظهر ، وفتح الإنجيل ، ورفع لينكولن يده اليمنى وردد وراءه الكلمات الخطيرة الآتية : « أقسم أن أقوم بعمل رئيس الولايات المتحدة بأمانة وإخلاص ، وأن أحافظ جهدى على دستور الولايات المتحدة وأحبيه وأدافع عنه . ، فهذه اليمين التى أقسمها الآن الرئيس السادس عشر هى التى أقسمها لأول مرة جورج واشنطن . وكانت الثلاث عشرة ولاية قد اتحدت وكونت أمة جديدة . أما الآن فهذه الأمة قد انقسمت بعضها على بعض بعد أن صار عدد ولاياتها أربعة وثلاثين !

فهل يستطيع الرئيس الجديد هذا أن ينقذ الاتحاد العظيم ؟ — هل سيجد فى نفسه الشجاعة والإيمان ليحميه ، ويحافظ عليه ، ويدافع عنه كما وعد أن يفعل ؟ .. تلك هى المهمة الخطيرة التى ألقى الآن على عاتق إبراهيم لينكولن .

وبعد الاحتفال ركبت الأسرة وساروا فى طريق بلسلفانيا الى

البيت الأبيض . حيث تولى السيد بوكانان تقديمهم الى هيئة الموظفين
وما إن دخل تاد وويلي البيت حتى تهيجا وجعلا يجريان على
السلام صاعدين نازلين من الدور الأعلى الى « البدروم » ، وقابلا كل
خادم وتحدا اليه ، وكل رجل من رجال الشرطة السرية ، وكل رسول ،
وحارس . وهرعا الى المتحف ليشاهدا نبات السوسن وحوض
السماك الأحمر . وأسرها الى الدور الأعلى ، ودخلا كل حجرة فيه ،
وقفزا على السرير وجعلا يتقلبان عليه ، ونزلا على « الدرايزون » ، ثم
عادا وصعدا السلام ليلعبا مع والدهم لعبة « الوثبة » ،
وقال ويلي ان بابا لا وقت لديه الليلة ليلعب معنا لأنه
ذاهب الى المرقص .

فقال تاد نعم ، وجرى الى مكتب والده ، ووثب على حجره ، وأشار
الى صورة قديمة معلقة على « المدفأة » المثبتة بالرخام وسأل من هذا ؟
فأجابه أمه إنها صورة أندرو جاكسون — وهي صورة بالية
متشقة ؛ فقد طافت أمه بالبيت كله وقالت : إن المكان جميعه بحاجة
ماسة الى الإصلاح ، فالسجاجة قدرة كل القذارة وأنها ستأمر غدا بخلعها
وتزيقها ثم إحراقها ، كما انها ستأمر باستحضار أثاث جديد ، وبسط جديدة
وفي أول مرقص لها حضرته في تلك الليلة ، كانت زوجة الرئيس
الجديد ترتدى رداءها الأزرق المصنوع من الساتان ، وتضع في شعرها
ريشات من ريش النعام .

وكان السيد لينكولن يلبس قفازا أبيض من الجلد ، السختيان ،
هظل يصافح الناس ساعتين متواليتين ، وافتتح الاستعراض العظيم ،
ولكنه لم يرقص ؛ فرقص ستيفن دجلاس مع ماري طود لينكولن .
وفي الصباح التالي وهو أول يوم بدأ فيه الرئيس لينكولن عمله ،
وصلته أنباء سيئة .

لقد قطعت المؤن عن فورت سمتر ولم يبق بها ما يكفي نحو شهر
من الزمان . وفورت سمتر هذه حصن من حصون الولايات المتحدة
يقع عند ساحل كارولينا الجنوبية .

وفي الثاني عشر من أبريل ، أطلق الخصوم النار على الحصن وسقط
في اليوم التالي في أيدي جنود كارولينا الجنوبية .

ونزل علم الولايات المتحدة
وارتفع عليه علم المتحالفين
وبدأت الحرب !

وبقلب مكتب حزين طلب لينكولن خمسة وسبعين ألف جندي
للدفاع عن الاتحاد .

وسريعا ما انفصلت أربع ولايات أخرى عن الاتحاد ، ونقلت
عاصمتها الى مدينة ريتشموند من أعمال فرجيبيا ، لأن فرجيبيا كانت قد
انضمت الى التحالف .

وهنا على مقربة من نهر البوتوماك عند واشنطن كان علم

التحالف يخفق ! وكان الجنود المتحالفون يتجمعون .

ووقف لينكولن عند النافذة الجنوبية في مكتبه ، ومنها كان يستطيع أن يرى عبر النهر منظاره . فكم رجاء ، وكم دعا الله أن يحضر بعض هؤلاء الخمسة والسبعين ألفاً من الجنود الذين طلبهم ليسرعوا الى حماية المدينة ! ومرت الأيام يوماً بعد يوم والجنود لم تحضر ؛ ثم لم يستطيعوا الحضور . فقد نزعت قضبان السكك الحديدية ولم يعد ثم مجال لوصول القطر ، وقطعت أسلاك التلغراف فأصبحت واشنطن معزولة تمام العزل ، وغير محمية . وكاد لينكولن أن يجن . وجعل ينتظر أن يرى جنود المتحالفين يسرون على القنطرة الكبيرة المقامة على نهر البوتوماك .

وقال تاد وهو يندفع داخلاً مكتب والده ومعه مكنسة زاعماً أنها بندقية — قال : فليأتوا ! فقد أنشأت أنا وويلي حصناً على السطح . فليأتوا ! فاني وويلي مستعدان لملاقاتهم .

فتبسم لينكولن . ولكنه كان يذرع أرض الحجرة في الليل ويصلي ويدعو الله لهؤلاء الجنود الشماليين .

وأخيراً أخذوا يحضرون . فوصل عدد قليل منهم أولاً ، ثم وصلت فرق أكثر وأكثر وجعلوا يمرون ويمرون ... الفرقة بعد الفرقة ... وكانت حركات مدافعهم وبطرياتهم تسمع وهي تخرج جراً في الشوارع . وفي آخر مايو كانوا في فرجينيا يعسكرون عند الطرف

الآخر من القنطرة الطويلة . وكانت الصحف تُهيب بهم أن يتقدموا
« ويمضوا الى ريتشمند » .

وكانت ريتشمند على بعد مائة ميل

ولم تكن الجنود قد تدربت بعد ولا تأهبت ؛ ولكنهم تقدموا
في ٢١ يولييه عشرين ميلا ، وحاربوا الجنود المتحالفة عند خليج صغير
يعرف باسم بل رن وكان ذلك في يوم الأحد ، فقام كثيرون من
واشنطن ليتفرجوا على تلك المعركة الأولى كأنها كانت سباق خيل ،
أو استعراضا حريا ؛ وعند الظهر سمع ويل وتاد من حصنهما الذي
على السطح المدافع تدوى كأنها أصوات ابواب تقفل بشدة . ومنذ
الظهر كان لينكولن يصغى في مكتب التلغراف بمصلحة الحرب .
فكانت الأخبار مطمئنة كل الاطمئنان ، حتى أنه خرج حول الساعة
الخامسة بالعربة لنزهة قصيرة ليستريح . وبعد ساعة صادفه سكرتيره
عند مدخل البيت الأبيض ، وأخبراه بلبأ هزيمة منكرة حاقت بهم .
ولم يمض وقت طويل حتى توافد المتفرجون بنشرون أبناء الكارثة ،
فاستولى الذعر على الناس وأخذ منهم كل مأخذ حتى كانوا واثقين
من أن جيش الثوار سيكون في واشنطن في أية لحظة ؛ وعندئذ يكون
كل شيء قد ضاع .

وفي اليوم التالي جعلت الجرائد تعزو هذه الهزيمة الى الحكومة
السخيفة ، والى الرئيس الذى لا يصلح لشيء — ذلك « الجاهل الأبله » ،

وإذ كان لينكولن رئيساً للولايات المتحدة في زمن حرب فقد أصبح القائد الأعلى للجيش كذلك . وبوصفه هذا أدرك أنه بحاجة إلى الاستزادة من الإلمام بالتكتيك الحربي ، ففعل ما اعتاد أن يفعله دائماً : استحضّر الكتب اللازمة وعكف يقرأها ويدرسها في كل لحظة يستطيع أن يوفرها من لحظات يومه الحافل بالأشغال . وبعد زمن قصير أدهش قواده بحسن إدارته لحاجاتهم ودقّة فهمه لمشكلاتهم .

وفي الخريف كان تاد وويلي يدرسان كذلك ، أو كان مقروضا فيهما أن يدرسا ، لأن والدتهما اختارت لهما مدرسا يؤدبهما ، وأعدت لهما المكاتب اللازمة ، وسبورة وضعتها في حجرة الطعام الرسمية الكبرى ولكن كيف يتيسر لصبيين صغيرين أن يدرسا على حين أن الجياد الصغيرة ، والأرانب ، والمعيز ، وسائر أنواع الحيوانات الأليفة تهدي إليهما باستمرار ؟

وكان عند ويلي مهر صغير يحبه كل الحب ، فصمم على أن يركبه ويجري به في يوم بارد كثير الثلوج من أيام شهر فبراير ، يشبه ذلك اليوم الذي غادروا فيه سبرنجفيلد في السنة الماضية ، فأصابه برد ، ومرض مرضاً شديداً ، وظلت صحته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ؛ وتوفي في وقت قصير جداً حتى لا يكاد المرء يصدق .

مسكين ، تاد ، الصغير هذا ! إنه لم يستطع أن يصدق هذا الخبر ، لم يرد أن يصدق . وكادت أمه تخرج عن نفسها حزناً عليه وأسى ،

وحاول لينكولن جهده أن يواسيها كليهما؛ ولكن إذا جن الليل،
كان الحارس الذى عند بابه يسمع الرجل الحزين وهو يذرع الحجرة
ذهاباً وجيئة، أو يتأوه فى نومه ويئن.
وهكذا انتهت أول سنة لهم فى البيت الأبيض.

التحرير

كان تحرير العبيد أعظم حادث حقا في السنة الثانية من رئاسة إبراهيم لينكولن . فبعد مضي عدة أيام على جنازة ويلى ، دعا مجلس وزرائه للانعقاد ، وللبحث عن طريقة لمعالجة هذه المشكلة . وقال إنه ظل شهورا كثيرة يحاول التفكير في طريقة لتحرير العبيد تكون عادلة ومنصفة لأصحابهم .

وكانت جلسات مجلس الوزراء تعقد في حجرة في البيت الأبيض يدخلها الرئيس من مكتبه الخاص ، فلما أخذ يتكلم كان أعضاء المجلس السبعة جالسين معه حول مائدة مستطيلة وكلهم ملتصق الا السيد « سيوارد ، وزير الدولة . وكان رجلا مديد القامة ، ذا شعر كث رصاصى اللون ، وأنف ضخمة . وكان وزير الحرية السيد « ستانتون ، أطولهم لحية ، وأوفرهم نشاطا ، وأقلهم صبرا .

فكان دائما متحفزا قلقا يريد العودة الى عمله الهام في إدارة الحرب . أما من حيث تحرير العبيد ، ففكرته الوحيدة المتسلطة عليه ليست كيف تحرر العبيد ؛ ولكن علينا أن نحررهم ، ونفرغ من المشكلة . ففي نظره ان المناقشة في تحقيق العدالة والإنصاف لأصحاب العبيد عقيمة غير مجدية ، ومضيعة للوقت ؛ ولم يكن مما يهدى غضبه أن تطول الجلسات ، وتتخللها دقات عالية على الباب .



وكان لنكولن خطيباً مصقفاً ، فاستطاع بصوته القوي ونبراته
الحادة أن يسيطر على السامعين .
وفعلت كلماته في السامعين فعل السحر لأنه استخدم كلمات
بسيطة واضحة توحى بالأمانة والصدق .
واستولت الدهشة على السامعين جميعاً لأن لنكولن فتح عيونهم
على أشياء لم يفكروا فيها من قبل . . . تحرير العبيد .

فبعد الدقة الغليظة جاءت دقة أخرى قصيرة حادة ، تلتها غيرها غليظة بطيئة ثم دقة أخرى كذلك ، وبعدها دقتان حادتان . فأصغى لينكولن وابتسم .

ثم قال : — (ت) : — (ا) ، — .. (د) ! .. هذا (تاد) . ونهض وهو يقول لقد وعدت أن أجيبه دائماً كلما استعمل إشارات ، المورس ، .
وفتح الباب .

فاندفع إيب كأنه إعصار صغير ، وعانق والده بقوة ، ثم جرى يبحث عن طلبته وعاد وخرج مسرعاً وهو يقول . إنه : « أراد أن يذهب الى مكتب التلغراف عقب الجلسة ، .

وكان مكتب التلغراف في الدور الثاني في إدارة الحرب عبر الحديقة من ناحية البيت الأبيض ، وفيه كان يقضى لينكولن كل يوم جزءاً من الوقت يستمع الى التقارير التي ترد من الجيوش والقواد في جبهة القتال .

وكان آخر شيء يعمله عادة في الليل قبل أن يمضي الى مخدعه ، أن يتريض قليلاً سيراً على الأقدام ، وكثيراً ما كان يصحبه (تاد) فيراهما ستانتون آتين معا — الرجل الفارع الطول ، والصبي الصغير ، يسيران يداً في يد في الطريق المفروشة بالحصباء .

وكان في ميدان القتال جيشان اتحاديان : أحدهما في الشرق على

نهر البوتوماك ، والثاني في الغرب عند نهر المسيسيبي . وكانت ترد أحيانا بعض الأخبار الطيبة من الجيش الذي في الغرب . ففي السادس من فبراير ورد أول تقرير من الغرب يبشر بانتصار حازه جيش الاتحاد ، فقد كسب قائد غير معروف معركة ، وكان اسمه جرانت . ومن قبيل المصادفات أن أول حرف من كل من اسمه كان يشبه أول حرف من كل من كلتي الولايات المتحدة (باللغة الانجليزية) U S وهما كذلك أو لا حرف في العبارة الدالة على الشروط التي اشترطها عقب انتصاره وهذه العبارة الانجليزية هي (Unconditional surrender) ومعناها الاستسلام بغير قيد أو شرط — U S — فقد كان اسم

الرجل Ulysses Simpson Grant

هذا ، ولم تصل أخبار مطمئنة من جيش البوتوماك فقد كانت المؤن والذخائر والخيول ترسل اليه الاسبوع بعد الاسبوع ، ولكنه كان قد توقف . ففي أواخر شهر مايو كان على بعد عشرة أميال من ريتشموند ولم يستطع أن يتقدم بعدها أى تقدم

وذلك لأن القائد العظيم الجنرال روبرت لى الفرجيني ، كان هو القائد الذي تولى الدفاع عن عاصمة المتحالفين ، وهاجم جيش الاتحاديين واضطروهم الى التقهقر بعد معركة مريعة استمرت سبعة أيام وكانت التقارير الواردة عن القتلى والجرحى محزنة تغشى النفوس ؛ فكل برقية ترد كانت تحز في قلب لينكولن وتمزقه ، كأن كل جندي مات

ابن من أبنائه ، سواء كان ذلك الجندى من رجاله أو من خصومه ،
وسواء كان من لابسى الحلل الزرقاء أو من لابسى الحلل الرمادية ،
حتى لم يعد فى طاقته أى مجال للاحتمال . فكلهم أفراد من أسرته .
فدأت يوم ، وهو يدخل مكتب التلغراف ، وقد غلب عليه
الحزن ، طلب بضعة أدراج من الورق .

وقال أريد أن اكتب شيئاً خاصاً قد يكون فيه لإنهاء الحرب ،
فانى أستطيع أن أكتب هنا بهدوء أكثر مما أستطيع أن أفعل وأنا
فى البيت الأبيض .

جلس أمام مكتب قريب من النافذة ، ولكنه لم يكتب على الفور
شيئاً كثيراً ، وذلك ، كما قال رئيس عمال التلغراف عندما تحدث فى هذا
الموضوع فيما بعد ، بل ظل يُطل من النافذة ويدرس لفينة بعد
الفينة ووقع نظره مرة على خيط عنكبوت يمتد من المدخل
الى وصيد النافذة الخارجى ، وبدأت عليه أمارات الاهتمام ، عندما ظهر
عنكبوت كبير عند مفرق الطرق ، وقرع عدة مرات على الخيوط ،
فحضر على الأثر خمسة عناكب أو ستة للتسامر .

وكان لينكولن يحضر كل يوم ليكتب . وعند مايتبأ لمغادرة
المكتب يوصى العامل عادة أن يُعنى بما كبه ، وألا يدع أحداً يطلع عليه
ولما فرغ من الكتابة قال :

كتبت أمراً يمنع العبيد الذين فى الجنوب الحرية .

وفي جلسة مجلس الوزراء التالية قرأ عليهم ما سبق أن كتبه .
فأجمعوا كلهم على أن هذا الأمر يجب أن يصدر ، ولكن السكرتير
« سيوارد » شعر بأن الوقت لم يحن بعد وقال :

أظن أن الحكمة تقتضينا أن نلتظر حتى ينال الاتحاديون انتصاراً .
فعاد أعضاء الوزارة ووافقوا على هذا الرأي .

وعلى هذا انتظر لينكولن الى أن يكسب رجال الاتحاد انتصاراً
في معركة ، ولكن انتصاراً ما لم يتم ، بل حدث لهم انهزام آخر في شهر
أغسطس في موقعة بُلْ رَن الثانية وازدادت الأمور سوءاً على سوءها ،
وساءت أكثر مما كانت عليه في يوم من الأيام . فقد عبر الجنرال لي
نهر البوتوماك عند واشنطن وسار شمالاً عبر ماريلاند متجهاً نحو
فيلادلفيا . فها في اواسط شهر سبتمبر أوقفه جيش الاتحاد نهائياً عند
نقطة اسمها أنتيتام كريك وبعد موقعة من أشد مواقع الحرب هولا
ارتد لابسو الحلال الرمادية . لقد آن الأوان .

فبعد أسبوع دعا لينكولن مجلس الوزراء للانعقاد . وجاء السيد
ستانتون مندفعاً ، بلحيته ، وسترته الطويلة ، فليس أمامهم وقت
يضيعونه . فقد كانت أعصابهم جميعاً متوترة بما أرهاقوا به في الأسابيع
الماضية . فأصلح لينكولن نظارته ، ولم يخرج ورقة ، كما كانوا
يتوقعون بل فتح كتاباً صغيراً ، وقال :

أيها السادة اسمحوا لي أن أقرأ عليكم فصلاً من هذا الكتاب . فانه

مثير للضحك جداً . وبعد أن فرغ ضحك هو ، وتلفت حوله فضحك واحد أو اثنان ، ولكن استانتون لم يضحك مطلقا ؛ فقال له لينكولن في رفق : ألا تستطيع أن تضحك ؟ انكم جميعا بحاجة مثلي الى الضحك ، انتي — وسط هذه الشدة المريعة — لأموت إن لم استطع أن أضحك . ثم بدت على وجهه علائم الرزاة والجد ، وتبدلت لهجة صوته لما قال أعتقد أن الوقت قد حان الآن لإصدار الأمر الذي يقضى بتحرير العبيد . وهأنذا أعيد عليكم قراءته من جديد . ونشر الورقة ، وقرأ ماسبق له أن كتبه في مكتب التلغراف ؛ وكان يتوقف مرات كثيرة في أثناء القراءة ليشرح ويعلق ؛ ثم وقع الأمر ، وهو يقضى بأنه : من أول يناير سنة ١٨٦٣ يكون جميع العبيد في الولايات التي لا تزال في حرب مع الولايات المتحدة — أحراراً على الدوام . ومرت أربعة شهور ، ولكن الولايات لا تزال في حرب بعضها مع بعض . لقد تم الفصل في الأمر

وجاء عيد رأس السنة الجديدة في أول يناير سنة ١٨٦٣ ، وجاء ميعاد حفلة الاستقبال السنوية التي تعقد في رأس كل سنة في الحجرة الشرقية من حجرات البيت الأبيض ، ووقف لينكولن يصافح الضيوف بيده حتى قبيل العصر ، ثم أحيط علما بأن وزير الدولة يلتظره في مكتبه ، فقد أحضر السيد « سيوارد » الصيغة النهائية ليوقعها الرئيس . وقال لينكولن وهو يتناول قلمه :

« لا تزال يدى متصلة من كثرة مصالحة الناس طيلة الصباح .
وأرجو ألا يضطرب خطى ، فلست أريد أن يقول أحد إنى ترددت
فى توقيع هذه الوثيقة باسمى ، فلم أكن فى يوم من أيام حياتى أكثر
وثوقاً من أنى انما أعمل ما فيه المصلحة والحق .
وعلى ذلك غمس قلبه فى الدواة ووقع باسمه

إبراهيم لينكولن
وبذلك يكون قد وقع ما عرف فيما بعد :

بإعلان التحرير

وبعد سنتين ، أصدر الكونجرس قانوناً يقضى بتحريم المرق فى
أى مكان فى الولايات المتحدة . وأضيف هذا القانون الى الدستور ،
على أنه التعديل الثالث عشر . وهكذا صارت ألفاظ « إعلان التحرير ،
نافذة أخيراً من الوجهة القانونية على الأقل .
لجميع المواطنين فى الولايات المتحدة متساوون فى حقوقهم فى
الحياة ، وفى الحرية ، وفى السعى وراء ما فيه السعادة .

في جتيزبرج

لم تحدث في أراضى الشمال سوى معركة واحدة من معارك هذه الحرب المحزنة التي شبت بين بعض الولايات وبعض . وهي المعركة التي حدثت في شهر يولييه سنة ١٨٦٣ على مقربة من حدود ولاية بلسلفانيا عند مدينة جتيزبرج ، وظلت رحي القتال فيها دائرة ثلاثة أيام . وبعد أن انتهى القتال صممت المدافع ، وانقشع الدخان ، كان أكثر من أربعين الفا من الرجال والشباب في حللهم الرمادية والزرقاء صرعى في ميدان الحرب . وفي اليوم التاسع عشر من نوفمبر ، أى بعد أربعة شهور ، أقيم احتفال كبير لجعل هذه الساحة مقبرة أهلية .

وقبل ذلك يوم واحد غادر قطار خاص واشنجنطن ، ونزل منه لينكولن وفي قبعته ، أو في جيبه ، صحيفة من أوراق البيت الأبيض كتب فيها جزءاً من الكلمة التي عزم أن يلقيها . فقد طُلب منه أن يوجز إذ أن السيد ادوارد إفريت الذي عرف منذ سنين بأنه خطيب قدير سيلقى الخطاب الأساسى .

وكانت قد أقيمت منصة غشيت بالاعلام ؛ فظل السيد إفريت يخطب ساعتين متواليتين ، وكانت خطبة حافلة بالمعاني ، مهذبة مصقولة ، ولكنها مع ذلك لم يكتب لها الدوام ، فقد نسبها الناس من زمن طويل . وبعد أن فرغ إفريت من القاء كلمته عزفت الموسيقى بضع ألحان مختارة

ولم تستغرق العبارات التي ألقاها غير بضع لحظات قصار ، ولكنها عبارات سيظل الناس يذكرونها ما دامت اللغة الانجليزية ، وكانت عبارات بالغة البساطة وبالغة الجمال . . فقد قال :

« منذ سبع وثمانين سنة خلت أنشأ آباؤنا في هذه القارة ، أمة جديدة ، قامت على الحرية ، وكرست نفسها للمبدأ القائل بأن الله خلق الناس جميعا متساوين .

وهنا نحن الآن مشتبكون في حرب أهلية عظمى تبلو هذه الأمة ، أو أية أمة أخرى مثلها قامت على أساس هذا المبدأ ذاته ، وكرست نفسها له ، لتظهر إن كان في وسعها أن تعيش طويلا .

وهنا نحن قد اجتمعنا في ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب ، وجئنا لنخصص جزءاً منه ليكون المشوى الأخير لأولئك الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل أن تحيا هذه الأمة ، وإنه لجدير بنا ، وحق علينا ، أن نفعل ذلك .

على أننا بمعنى أوسع ، لانستطيع أن نكرس هذه الأرض ، ولأن نُضفي عليها قدسية ما ؛ فالرجال الأبطال ، الأحياء منهم والأموات ، الذين قاتلوا هنا قدسوها تقديساً أعظم وأسمى من أن نستطيع قوتنا الضئيلة أن تزيد عليه أو تقلل من شأنه . وسوف لا يابيه العالم كثيراً لما نقوله هنا ؛ وسوف لا يتذكره طويلا ، ولكنه لن يلسى أبداً ما فعله هؤلاء الأبطال .

« فعلينا نحن الأحياء أن نكرس أنفسنا هنا للعمل النبيل الذي لم يتم بعد ، والذي عمل على تقدمه الى هذا الحد أولئك الذين قاتلوا في سبيله هنا . نعم ، إنه لأولى بنا أن نكرس أنفسنا هنا للقيام بذلك الواجب العظيم الذي لا يزال أمامنا ؛ فلنستمد من هؤلاء الموتى المكرمين إخلاصاً متزايداً للقضية التي بذلوا في سبيلها آخر قسط واف من الإخلاص ، وأن نعقد العزم هنا على أن لا يكون هؤلاء الموتى قد ماتوا عبثاً ، وأن الحرية ستبعث في هذه الأمة ، بأذن الله ، بعثاً جديداً .

« وأن حكومة الشعب ، بواسطة الشعب ، وفي سبيل مصلحة الشعب ، لن تزول من على وجه الأرض . »

نحو النهاية

لما عاد الرئيس لينكولن من جيتزبرج كان مريضاً ؛ على أنه لحسن الحظ ، مالبث أن تعافى وعاد إلى مكتبه ، ولكنه بدا أشيب الرأس ، متعباً ومنهوك القوى حتى ألح عليه أصدقاؤه أن يستريح فلم يكن منه إلا أن ابتسم وهز رأسه .

ثم قال : لا أستطيع أن أستريح ، فالجزء المرهق مني إنما هو في نفسي ، وبعيد عن تناول يد أى إنسان ،

فلا راحة إلا بعد أن تنتهى الحرب . فعدد المشكلات التى عليه أن يواجهها ، وعدد الأسئلة التى عليه أن يجيب عنها ، والمساوىء التى عليه أن يتحملها — كانت لانهاية لها ولا آخر . ذلك إلى أن الزوار كانوا يحاصرونه كل يوم ليرفعوا إليه الشكاوى ، ويقدموا له المقترحات التى تعن لهم . فازدحمت الردهة بجماهير الناس الذين ظلوا يلتظرون دورهم فى الإذن لهم بالدخول إلى مكتبه .

ف ذات يوم ، وقد فتح الباب ، فوجىء لينكولن مفاجأة سعيدة . فان شخصاً قصير القامة ، نحيل الجسم قويه ظهر ماثلاً أمامه ، وقال كيف حالك يا إيب ؟

فصاح لينكولن : دنيس ! دنيس هانكس ! فهذا هو الشخص الذى زاره لأول مرة منذ خمس وخمسين سنة مضت ! وعاد منها مخيب



وكان لنكولن يحب حفيده حباً شديداً .
وكثيراً ما كان يصحبه معه إلى مكتبه .
وكان الناس كلما رأوا لنكولن وحفيده يسيران جنباً إلى جنب
شعروا بمدى حب الرجل الكبير للصبي الصغير
وقبل مصرع لنكولن بأيام قليلة أصر الصبي الصغير على التقاط
صورة له مع الرجل الخالد .

الآمال ، فطوقه لينكولن بذراعيه ، وسأله عن جميع أخبار آل جونسون ، وآل هانكس ، وقدم إليه فيما بعد ساعة فضية هدية منه ليحتفظ بها على سبيل الذكرى ، إذ كان يسره دائماً أن يرى أصدقاءه القدامى من إلينوى وإينديانا . وكثيراً ما خطر له أن يود لو يرى أوستين ثايار أول رفيق له في لعبه في كنتكى

وكذلك عندما بدأت سنة ١٨٦٤ كان لينكولن يتطلع إلى مقابلة رجل من إلينوى . ولم يكن هذا الرجل صديقاً للينكولن كما لم يكن غريباً عنه تماماً ، فقد كان ضابطاً في الجيش — كان ذلك القائد الذى انتصر أول انتصار ناله جيش الاتحاد ، وقد استولى الآن على آخر حصن على المسيسيبي وبذلك أنهى تلك المعركة الطويلة التى كان الغرض منها السيطرة على نهر المسيسيبي

هذا هو الجنرال أوليسيزس . جرانت . فقد كان في شهر فبراير فى طريقه الى واشنطن ليتسلم مركزه الجديد ، اذ عهد اليه بمنصب القائد العام للجيش المتحدة . وكان لينكولن قد أرسل يستدعيه وجعل يترقب حضوره

فليلة وصل جرانت اتجه الى البيت الأبيض مباشرة ؛ ولسوء حظه كانت ليلة الاستقبال عند الرئيس . ولما كان جرانت رجلاً يغلب عليه الحياء فقد أراد أن يعود أدراجه . ولكنه لم يستطع فذلك أمر يجلب النحس وينذر بالشؤم ؛ وانتهى به الأمر أنلقى سيجاره

ودخل . وكان رجلا قصير القامة ، متزمتاً ذا لحية كثة سمراء ، يرتدى بذلة رسمية كثيرة التجاعيد والغضون ؛ فبدأ أشبه برجل عاطل خرج من عمله ، منه يبطل فاتح ؛ ولكن ما أن شاهدته الجماهير حتى عرفته في الحال ، وما كاد يتحدث الى لينكولن حتى صاح به بعض الناس أن « قف حيث نستطيع أن نراك » ،

وبعد أن قُدم جرانت الى عقيلة السيد لينكولن اضطر أن يقف على مقعد طويل من تلك المقاعد القرمزية بحذائه الكثير التراب ، فارتبك كل الارتباك ولم يستطع أن ينبس بكلمة واحدة ومع ذلك فقد كان هو الذي سينهى الحرب باستيلائه على مدينة ريتشمند عاصمة المتحالفين ، وباكره القائد العظيم الثرجيني الشجاع « روبرت لى » على الاستسلام

فقبل أن ينتهى شهر مارس كان جرانت قد عبر نهر البوتوماك ، وأقام مركز قيادته مع الجيش الاتحادى فى فرجينيا . وفى مايو اتجه الى الجنوب الشرقى ميمماً شطر ريتشمند . ومن ثم ظل يعمل فى صمود ومثابرة . وقد بعث بإشارة تلغرافية قال فيها :

« عقدت النية على أن أحارب هنا فى هذا الخط الى النهاية ، ولو استغرق الأمر الصيف كله » . وهذا ما قد حدث .

نعم لقد أكرهه خصومه على تغيير اتجاهه مرة أو اثنتين ، ولكن لم يحدث أبداً أنه تراجع قط ، بل صمد ولبث الصيف كله طيلة

الشتاء ، الى أن عاد الربيع ، وعندئذ اضطر الجنرال (لى) الى أن يسلم
فلول مابقى من جيشه المتضائل .

هذا ، وقد ازداد العبء الذى كان ينهض به لينكولن حتى بلغ حداً
يكاد لا يطاق . فلما قرأ كشوف القتلى ، وزار الجرحى فى المستشفيات ،
قال : أشعر أن أجلى لن يمتد بى بعد نهاية هذه الحرب . . ومع ذلك
لم يبد أن هذا أزعه ... وكذا لم تزجه الثمانون خطاباً أو أكثر التى
وصلته ، ويهدده فيها مرسلوها بعزمهم على اغتياله . فقال : ان الإنسان
منا لا يستطيع أن يموت الا مرة واحدة ، ولكن معيشته فى خوف
دائم من الموت معناها أنه يموت المرة بعد المرة ،

فكل ما كان يأمله هو أن يعيش حتى ينجز العمل الذى بدأه ،
وأن يشق به الناس ثقة عظيمة تجعلهم يعيدون انتخابه فى شهر نوفمبر .
وقد فعلوا على الرغم من أن منتقديه قد وجهوا اليه الكثير من اللوم ،
وأن الصحف المعادية قد صورتها فى أشكال كاريكاتورية قبيحة ،
واتهموه بأنه كذاب ، ولص ، ووحش ، وأنه شيطان ، طاغية مستبد ،
وشرير ، وجوريل طويل الذرائع ! فعلى الرغم من ذلك كله أعاد
الشعب انتخابه . فكان هو شاكرامنتا .

وفى الخامس من شهر مارس سنة ١٨٦٥ ، وهو يوم تنصيبه لثانى
مرة ، كاد أن يكون سعيداً كل السعادة . فالحرب كانت قريبة من
نهايتها . وبعد مضي شهر واحد تماماً ، فى منتصف الساعة الخامسة مساءً

من شهر ابريل وصلت من جرانت الاشارة التلغرافية التي طال انتظارها ، وفيها يقول : استسلم الجنرال الى جيش فرجيدا هذا المساء .

لقد أنقذ الاتحاد وانتهت الحرب .

وفي الصباح التالي عند الفجر دوت على نهر البوتوماك خمسماية طلقة من طلقات المدافع تحية للنصر . وعند الفطور أحاط موظفو الحكومة بلينكولن يلشدونه نشيد العلم المرصع بالنجوم ، وتجمع الناس في الشوارع يهتفون ويغنون وامتلات بهم حديقة البيت الأبيض ، وعزفت فرق الموسيقى . وظل (ناد) يذهب ويجيء ملوحا بعلم من الاعلام ، ثم ظهر الرئيس وتكلم من نافذة في الدور الأول فقال : « انى أرى معكم فرقة موسيقية ، فاقترح عليكم أن تعزفوا «ديكسى» نشيد الجنوب فهو من خيرة الألحان التي أعرفها . فعزفت الموسيقى «ديكسى» ثم عادت وعزفت نشيد العلم المرصع بالنجوم ، وبعد ذلك ساروا على نغمة نشيد الحرب الجمهورى ،

وليس من شك في أن إبراهيم لينكولن قد نام هذه الليلة نوما عميقا ؛ ولا بد أن يكون الحراس الواقفين خارج حجراته لم يسمعوه وهو ينوح ويتأوه .

ومع ذلك ، فبعد مضي بضعة ليال سمع لينكولن نفسه أصوات نواح وتنهيد ، وكانت الردهة التي خارج حجراته مظلمة وخالية من الناس ، فلم

يكن بها أحد؛ فتتبع لينكولن الصوت في الردهة المهجورة ، وفي السلام الى أن وقف عند باب الحجرة الشرقية فشاهد نعشا مجللا بالسواد وسط الحجرة .

فسأل من الذى توفى؟

وأجابه احد الحراس انه الرئيس فقد اغتاله قاتل .
فجعل لينكولن ينوح ، ثم استيقظ على إثر سماعه صوته نفسه .
واذا به فى حجرته — راقداً فى سريرته الكبير المصنوع من خشب الجوز !
انه انما كان يحلم . فلما قص حلمه فيما بعد على السيدة لينكولن
فركت يديها حزنا واكتئابا ، لأنها كانت تعتقد أنه يستطيع أن يرى فى
منامه ما يخبئه له المستقبل ، ورجت منه أن يحتاط ويكون على حذر
فلا يذهب وحده ليلا الى مكتب التلغراف ، ولم يفعل فليحمل
معه عصا !

فقال لها فى رفق : « لاتنزعجى يا أماه ، فالله أعلم بما فيه الخير . وفى
اعتقادى انه سينهى هذا الأمر على أحسن وجهه بطريقته الصالحة .
وفى الوقت الذى يحدده ،

ثم تبسم وقال : « ومع ذلك فسأحمل العصا إن كان حملها يزيدك
راحة واطمئنانا . »

اليوم الأخير

كان الرابع عشر من شهر فبراير سنة ١٨٦٥ هو آخر يوم . وكان يوماً جميلاً من أيام الربيع أخذت فيه من شمس الصباح الباكر تغمر بساط الكلاء الأخضر الذي أمام البيت الأبيض ، لما نزل لينسكولن من سريره الكبير المصنوع من خشب الجوز . وكان أريج الليلاق المزدهر يفوح من النافذة . وما وافت الساعة السابعة صباحاً حتى كان لينسكولن أمام مكتبه ! فقد كان من عادته أن يبدأ عمله في تلك الساعة . وفي الثامنة كان يتناول طعام الافطار . وكان معه هذا الصباح ابنه روبرت ، وهو شاب في الحادية والعشرين من عمره حضر توأ من المعسكر في فرجينيا ومعه صورة فوتوغرافية ليعرضها على أبيه ، فتأملها الأب باهتمام بالغ لأنها صورة رجل يحمل له لينسكولن كل احترام وإجلال ، ولم يكن ذلك الرجل غير الجنرال « روبرت لي » ،

وفي الساعة الحادية انعقد مجلس الوزراء . وكان منظوراً أن يحضر القائد جرانت هذه الجلسة ليشرح كيف وقعت وثيقة الاستلام في هو صغير من الطوب في دار محكمة أبوماتوكس في ولاية فرجينيا وفي آخر لحظة هرول الوزير ستانتون ، كالعادة ، متأبطاً لفافة من الخرائط والأوراق هي خطط ورسوم لاعادة تعمير الجنوب ؛ فمن رأيه التعجيل باعادة تعمير الجنوب هذا وإرجاءه إلى شكله ، على أن يتم ذلك في وقت قصير

فهز لينكولن رأسه ...

إن المسألة ستكون لا شك شاقة مهما نظرنا إليها من أحسن وجوها . فيجب أن نتناولها بشكل يكون فيه إنصاف وعدل لكافة الذين قاسوا وتحملوا . وقد عبر عن هذه الفكرة في خطابه الافتتاحي بقوله :

« من غير حقد على أحد ، ومع التسامح والاحسان إلى كل إنسان ، ضمدوا جراح الأمة ، واعملوا كل ما يمكن عمله لإنجاز صلح عادل دائم وحافظوا عليه . »

ثم التفت إلى القائد جرانت ، وسأله عن الشروط التي قدمها للجنود العاديين

فأجاب جرانت : « قلت لهم أن يعودوا إلى بيوتهم وعائلاتهم ، ووعدتهم ألا يضارب أحد منهم ماداموا لم يفعلوا شيئاً أكثر من ذلك . »
فهز لينكولن رأسه ، وأشرق وجهه ، فهذا حق ، وهذا مما يجب أن يكون .

ولما انقضت الجلسة عاد الرئيس والتفت إلى الجنرال جرانت وقال له :

يسر السيد لينكولن ويسرني أن تكون أنت والسيدة جرانت معنا هذه الليلة في المسرح ، فالرواية التي تمثل ستكون كوميديا مسلية اسمها « ابن العم الأمريكي » ،

فارتبك الجنرال جرانت ، وقال إنه قد أعد تذاكر السفر إلى
واشنطن لزوجته ولنفسه بقطار المساء ، فلا بد أن يكون ثمة تضارب
بين المواعدين .

فوافق لينكولن وودعه

وبعد الظهر حضر زوار كثيرون لرؤية الرئيس ، ومن بينهم أم
جندى شاب حكم عليه بالاعدام لأنه هرب من الجندية ، فوقع لينكولن
على طلبها بالعفو عنه ، فهو مستعد دائما لأن يعفو ويرحم ، كلها كانت
الرحمة سبيلا إلى تخفيف أثر العدالة

وفي العصر ركب العربة مع زوجته ومضيابها في رياضة قصيرة ؛
وكانت أشجار الصفصاف القائمة عند النهر خضراء مزدهرة ، وكان
الهواء نسيما عليلًا .

فقال لينكولن :

« إنى لم أشعر بمثل هذه السعادة في حياتى ،
وهذا ما ينبغى أن يكون . فقد أنجز عمله . ووجد العمل الذى
قدر له أن يقوم به فى حياته ؛ وقام بإنجازه على خير وجه فذلك
أكبر سعادة يتسنى لأحد أن ينعم بها

واحتارت السيدة لينكولن رداءها الأزرق السماوى المصنوع
من التافتاه لتذهب به هذا المساء من شهر ابريل إلى المسرح ، ووضعت
على شعرها تاجا من الورد الأحمر . أما لينكولن فلبس قبعته السوداء

العالية ووضع على كفيه شالا صغيراً رمادى اللون . وكانت العربية واقفة أمام البيت الأبيض ؛ فركبها وسارا بها هذه الليلة الرطبة في شارع بنسلفانيا واتجها بها الى مسرح فورد ، ليشاهد الكوميديّة الذائعة الصيت ،

وكذلك كان ممثل شاب اسمه «جون ويلكى بوث» يتصير في طريقه مثلهما الى المسرح ليقوم بدور له هذا المساء نفسه ولكنه لم يكن دوراً من أدوار المسرحية الكوميديّة بل دوراً في مأساة دبرتها نفسها الشريرة وكان لوج الرئيس لصق المسرح وقد ازدان بالأعلام . فلما دخل مع السيدة زوجته وقف النظارة ، وهتفوا لهما ، وعزفت الموسيقى بفشيد «حيوا الرئيس !» . وكان مع لينكولن وزوجته ضيفان هما سيدة شابة وضابط شاب برتبة بكباشى اسمه راشبون

جلس لينكولن في كرسي «هزاز» ومال به الى الامام وساده الطويلان منعقدان على «الدرابزون» ، كي يستمتع بمشاهدة التمثيلية . ثم عاد ومال الى الورا ليتمكن من رؤية زواره وهو مستريح في أثناء فترات التمثيل

وارتفع الستار عن المنظر الثالث وبعد أن تم نصفه ...

سمعت طلقة نارية

وصاحت امرأة

واندفع رجل من لوج الرئيس متجها نحو المسرح فاصطدمت

ساقه بأحد الأعلام ، ثم نهض ووقف على قدميه ولوّح بخنجر في يده ، ثم هرب من المكان وهو يصيح : « الموت للطغاة ، !

وهب النظارة في رعب واضطراب . فماذا حدث يا ترى ؟ :
الرئيس ! فقد أطلقوا عليه الرصاص ؟ كيف ؟ وكيف يمكن أن يحدث هذا ؟ أين كان الحراس ؟ أين كان الرئيس ؟

وتدققت الجماهير على ممرات المسرح وردّهاته : وسدوا مدخل اللوج ، ولكنهم ردّوا عنه ليفسحوا الطريق لحاملي المحفة المؤقتة التي حمل عليها الرجل الطويل جريحاً فاقد الوعي ويسيل الدم من قفاه ، ويتساقط نقطاً قانية على البرامج المبعثرة على الأرض كأنها أوراق الشجر . ثم نقلوه الى بيت صغير لحياط عبر الشارع . وسارع شخص وأسرج مصباح الغاز في حجرة صغيرة من حجرات البيت التي في الخلف ، ووضعوه على سرير غير عريض

ثم جاء الأطباء ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يردّه من ذلك البرزخ القائم بين الحياة والموت ، فاضطربت أنفاسه عند الفجر . وفي الساعة السابعة غادره ذلك الجزء المتعب من نفسه

وجللت المرايا الطويلة التي في البيت الأبيض ثلاثة أيام بالشاش الأسود والأرجواني ، ووضع نعشه بالشكل الذي رآه في الرؤيا وهو يحلم !

ولكن هذا لم يكن رؤيا ولا حلماً . . . إنه النوم العميق الذي

لا حلم فيه ، انه الراحة التي كسبها بحق ونالها بجهد . ذلك لأنه هو أيضا
قد بذل آخر قسط من الاخلاص وافيا كاملا .

لقد كان على الذين عاشوا ومضوا ، كما هو على الذين ظلوا على
قيد الحياة ، أن يراءوا أن الذين ماتوا في سبيل الحرية ، لا يكونون
قد ماتوا عبثا ، وأن حكومة الشعب بوساطة الشعب ، ولمصلحة الشعب
لن تزول من على وجه الأرض .